رصد الأجانب للمتغيرات العمرانية في مدن تريم وسيؤن وشبام في ثلاثينيات القرن العشرين

مسعود سعيد عمشوش*

الملخص

"هناك إقليم كان يُعد أحد أكبر وأقدم المدن الحضارية على وجه الأرض، وظل حتى اليوم غير معروف، ولا يعرفه الناس من الداخل، إنه إقليم حضرموت، حيث تتدفق الينابيع المحلية نادرة الوجود عبر هذا الإقليم، فقد ذكر الكتَّاب القدماء من العرب المدن الثلاث الكبرى والتجارية؛ وهي شبام، وسيؤن، وتريم، دون أن يكون بمقدور أحدهم أن يشير بعض الشيء إلى موقع وأهمية هذه المدن. فيكاد المرء أن يصف تلك المدن التابعة لحضرموت، بأنها مدنٌ عالميةٌ للفن، لأن ما وجدناه هناك من قدرةٍ صحيةٍ ناتجةٍ عن بيئتها الخاصة والمتوفرة في جميع الأنحاء، هناك على الجزيرة العربية، حيث لا يتصور المرء إلا صحراء وسلاسل جبلية جرداء، قد فاق كل توقعاتنا، حيث المباني شاهقة الارتفاع بالصحراء والموجودة منذ أن كانت تعرف أمريكا الأكواخ المتواضعة، فكل واحدةٍ من تلك المدن، من تلك العواصم الكبيرة والصغيرة، التي لا يمكن حصرها، يُقدم مثالًا معماريًّا في أسمى صوره، ويشهد على فنٍ، لا يُمكن نسبه البتة إلى الشعوب العربية، التي يقابلها المرء هناك اليوم والناس الذين يسكنون فيها، لا يزالون بعاداتهم وتقاليدهم في مرحلة العصر الوسيط". هانس هيلفريتس

المقدمة:

من المعلوم أن مدن وادي حضرموت قد ظلّت مغلقة في وجه الأجانب حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولم تكن دقيقة ولا واقعية الإشارات التي كتبها عنها بعض الرحالة الغربيين، الذين استطاعوا التوغل في الوادي قبل عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، الذي يُعدُّ واحدة من أكثر المراحل حساسية في تاريخ حضرموت الحديث؛ فقد شهدت المنطقة خلاله عددًا من التطوُّرات المهمة، وعلى رأسها بدء تلاشي مظاهر الحياة البدوية والتقليدية؛ نتيجة لتدفق أموال المهاجرين إلى حضرموت، ونجاح بريطانيا في إحكام قبضتها على جميع المناطق في جنوب الجزيرة. وقد شملت تلك التغيرات نمط العمران الطيني التقليدي في مدن حضرموت.

وخلال ذلك العقد زار عددٌ كبيرٌ من الرحالة والضباط الغربيين وادي حضرموت، وكثير منهم، مثل فان دن ميولن، وهانس هيلفيرتس، وفريا ستارك، زاروه أكثر من مرة، وقدموا مدنه، لا سيما سيئون وتريم وشبام، بالنص والصور. وركزوا على تقديم طريقة البناء الطيني التقليدي، ورصدوا التأثيرات الغربية والجاوية والهندية التي أدخلت على طريقة تشييد البيوت الريفية والقصور والمساجد.

ومن المسلَّم به أن كتب الأجانب عن حضرموت، التي تتضمن، إضافة إلى النصوص، عددًا كبيرًا من الصور والرسومات والخرائط، التي تكتسب أهمية توثيقية وتاريخية كبيرة؛ لأنها تحتوي، إضافة إلى المعلومات العلمية، على عناصر مهمة لم يكن بوسع المؤرخين المحليين توثيقها بيسر، إذ لم يكن بمقدورهم رصد تفاصيل العمارة إلا بالنص فقط، ولم يعطوا اهتمامًا لا بالصور ولا بالرسومات. وتظل نصوص الرحالة الغربيين وصورهم، على الرغم مما يشوبها من تحيّزات وأحكام مسبقة ونظرة استعلائية، جهودًا ومراجع ومصادر لا غنى لنا عنها لمعرفة أحوال بلادنا في الماضي. فلولاها لفاتنا الكثير من مسار التطور العمراني لمدننا وعادات مجتمعنا وتراثنا.

* أستاذ الادب العام والمقارن – كلية الآداب – جامعة عدن.

في الجزء الأول من هذه الدراسة نقدّم النصوص والصور التي سعى بواسطتها الهواندي فان در ميولن والألماني هانس هيلفريتس والبريطانية فريا ستارك رصد بعض ملامح النمط العمراني التقليدي في مدن سيئون وتريم وشبام في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي. وجعلنا الجزء الثاني من الدراسة لتقديم طريقة عرضهم للتغيرات التي طرأت على العمران في تلك المدن في تلك الفترة 1931–1939. وضمّنَّا الجزء الأخير من الدراسة تقييمًا نقديًا للكيفية التي قدّمت بها نصوصُ متننا والصور المرفقة بها النمط العمراني في وادي حضرموت.

أولًا– ملامح النمط العمراني التقليدي في مدن سيئون وتريم وشبام 1931–1939:

في ثلاثينيات القرن الماضي كانت تريم وسيئون وشبام مدنًا مسوَّرة ومحصَّنة. وعندما وصل فان در ميولن إلى تريم سنة 1931 رصد أسوارها، وذكر أن آل الكاف هم من قاموا في تلك الفترة بإعادة تشييد أجزاء كبيرة من أسوار المدينة، وأشار إليها في النص الآتي: "قادنا الطريق الجبلي إلى سهل مغطًّى بجلاميد صخرية صغيرة. يخترقه طريق جيد، يبدو أنه استعمل كثيرًا ويتَّجه رأسًا عبر ممرِّ السيول إلى بوابة تريم. فالمدينة يحيط بها سور طيني، يبدو أنه حديث التشييد، وعند البوابة هناك ثكنات، وفي الأركان حصون في حالة جيدة. ويحيط هذا السور العالي بالبساتين والمنازل والقصور والمساجد والمقابر. ومن الواضح أنَّ الحرب في نواحي تريم تعد ظاهرة عادية. لذلك تحتاج المدينة إلى وسائل حماية قوية. وقد تولى السيد أبوبكر الكاف مهمَّة تشييد وصيانة التحصينات الدفاعية للمدينة، وتحمل الجزء الأكبر من النفقات".

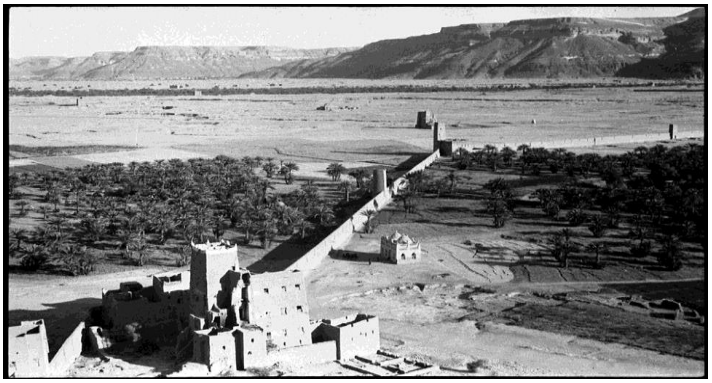

بواية وسور تريم سنة؟

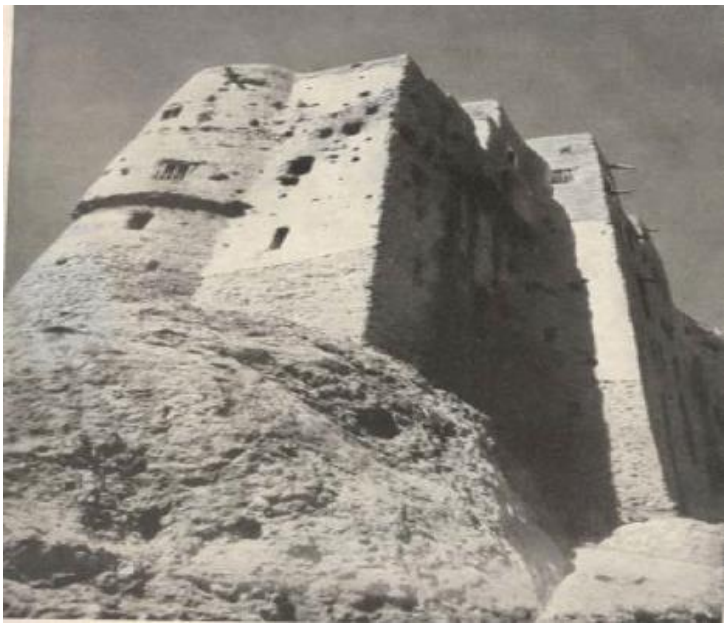

برج مراقبه في تريم

وفي مطلع سنة 1932 تمكّن هانس هيلفريتس من الوصول إلى تريم، ونزل فيها ضيفًا في بيت عبد القادر بن حسين بن شيخ الكاف، الذي احتفظ بالنمط العمراني التقليدي، وأكد أن المدينة تتكون حينئذٍ من خمسة أحياء، قدَّم الحديث عنها في النص الآتي: "نتواجد الآن بالفعل في مدينة تريم، العاصمة الحالية للإقليم، التي تتكون منذ نشأتها من خمسة أحياء، وتقطن بها قبائل مختلفة. وفيها يعيش الحضر مع البدو الذين فضلوا الاستقرار. وأهم وأكبر هذه الأحياء هو حي الحوطة، الذي يسكنه البدو المستقرون من قبيلة التميمي. كما يوجد في جميع الأحياء الخمسة المتناثرة قصور تتبع الإخوة الخمسة من عائلة الكاف، وقد تمت استضافتنا في منزل السيد عبد القادر بن حسين بن شيخ الكاف".

ويتميّز تقديم هانس هيلفريتس لتريم بتركيزه على المعالم الطبيعية والعمرانية المحيطة بالمدينة، من جبال ونخيل وقصور ومساجد، حيث كتب: "تحيط بمدينة تريم واحة شاسعة من النخيل، كما أن بها وديان عدة، وتنتصب في سمائها عاليًا مآذنها البيضاء. وكنت أنظر كل يوم من نوافذ قصر عائلة آل الكاف إلى هذه الواحة العظيمة، وإلى الجدران الصخرية البُنِّيَّة شديدة الانحدار، وإلى التجمُّعات السكنيَّة الكثيفة لمدينة تريم، التي يُخيِّم عليها هدوءٌ لا يُصدَّق في هذه المنطقة الريفية من جنوب جزيرة العرب، وكذا الهدوء والطمأنينة التي يُبدِيها الشعب، شعبٌ يوجِّهُ أقصى طموحه إلى داخله، فلا يعرف للوقت حدًّا. إنه شعب أوجد حضارة ذات نقاءٍ فريدٍ، قلَّما يجد المرء مثلها". (الجنوب العربي المنسي، ص134)

وقدم هانس هيلفريتس، في سياق سرد رحلته إلى تريم، الملامح العامة لمكونات المنزل الحضرمي التقليدي في مطلع سنة 1932، فقد كتب تحت عنوان (كيف يبدو الأمر في منزلٍ بجنوب جزيرة العرب؟) ما يأتي: "يدخل المرء المنزل عبر باب مزيَّنٍ بنحتٍ فنيٍّ إلى مدخل أمامي، ومنه يصعد سُلّم مصنوع من درجات من الطين والجير، يؤدي إلى حجرة الاستقبال، والتي إمَّا أن تطلَّ واجهتُها مباشرة على شُرفة أو نافذة في الجهة المقابلة منها لتلطيفها، لذا تُسمَّى الحجرة:

المحضرة أو المرواح. وبالمقابل منها وتحت الجدار الطيني الذي به باب يقع المطبخ وغرفة الغسيل أو الحمام. فأمَّا المطبخ، الذي له دعامات طينية منخفضة [بكار]، فيحتوي على الموقد (أو المسخن)، وبقربه ترص الحلل (الأواني). أما غرفة الغسيل [بيت الماء]، فتوجد بها (زيار) فخارية ضخمة مملوءة بالماء، وقنوات يتمُّ توصيلها إلى الخارج بمزاريب [مراعيض] خشبية كبيرة، ينساب الماء القذر بواسطتها مباشرة إلى الشارع، ثم تسقط هذه القذارة في بالوعة مفتوحَة، وعادةً لا يتمُّ تصريف هذه المياه القذرة إلى الشوارع الرئيسة، وإنَّما إلى الأزقة، التي تفصل المنازل المنفردة أو مجموعات المنازل عن بعضها. والحجرات الأخرى التي تلحق بالمجلس أو غرفة الاستقبال، تأخذ جميعها الشكل نفسه، فجدرانها مطليَّة بالجير الأبيض [النورة]، وأرضيتها جيريَّة، كما أنَّ دفَّتَيْ نوافذها مصنوعة من الخشب وإطاراتها مصنوعة بشكلٍ فنِّيٍّ من الحديد –ولا يوجد نوافذ زجاجية مطلقًا– وبها دعائم (أسهم) خشبية متعددة الزخارف، ومُحاطة بأركانٍ مدبَّبةٍ وأرفف حائطية، وكذا الحال بالنسبة لمعظم الأبواب ذات الدفتين، وكل أقفال الأبواب (الأقاليد)، كلها مصنوعة كذلك من الخشب". الجنوب العربي المنسي، ص17

منزل عبد القادر الكاف الذي نزل فيه هانس هيلفريتس سنة 1932

Hausfassade mit hölzernen Abflußrinnen für die Abwässer

Hadramauter Haustür

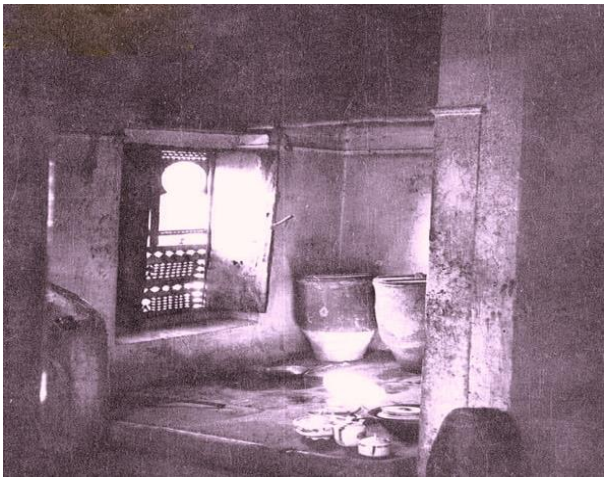

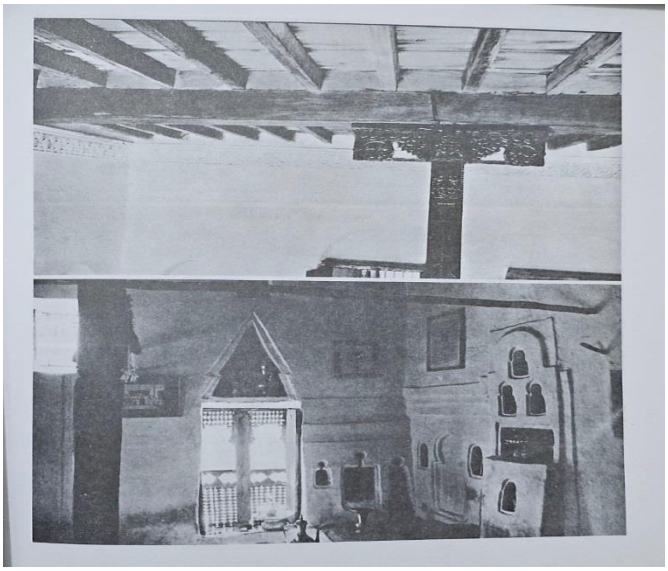

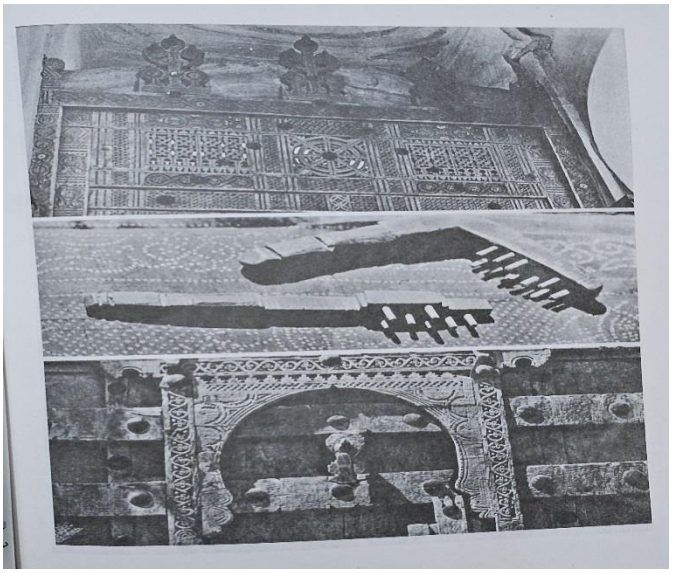

وتناول هيلفريتس في (الجنوب العربي المنسي، ص140) طريقة بناء المنازل التقليدية ذات الطوابق المتعددة في شبام ومدن وادي حضرموت الأخرى، قائلًا: "يتم بناء المنزل الحضرمي من الداخل إلى الخارج، باستخدام نوعٍ من السقالة، تُصنَع من جذوع النخل، لتحمل السُّقوف، وتُدعَّم بأعمدة (أسهم) خشبيَّةٍ مُزيَّنةٍ غالبًا بنقشٍ أو نحتٍ. ويحرص السُكَّان على وضع مزاريب (مراعيض صغيرة) خشبية لتصريف المياه التي تخرج من [نوافذ] كل غرفة، لكي يتم تفادي الماء المتساقط على الحائط الطيني. ويقومون كذلك بتصنيع الكلس الجيري [النورة]، الذي يطلون به الأسقف وإطارات الأبواب والنوافذ بشكلٍ زخرفيّ، كما يتم وضع الجص السميك الأبيض للزخرفة على الجدار الطيني البُنّي. ويتم تحضير النورة من الحجر الجيري، الذي يجدونه في جميع أنحاء السلاسل الجبلية، ويتمُّ الطَّرقُ عليها بمطارقَ كبيرةٍ [مسابيط] من الخشب حتى تتفتت". (وضمن الكتاب صورة لهذه العملية التقطها في تريم)

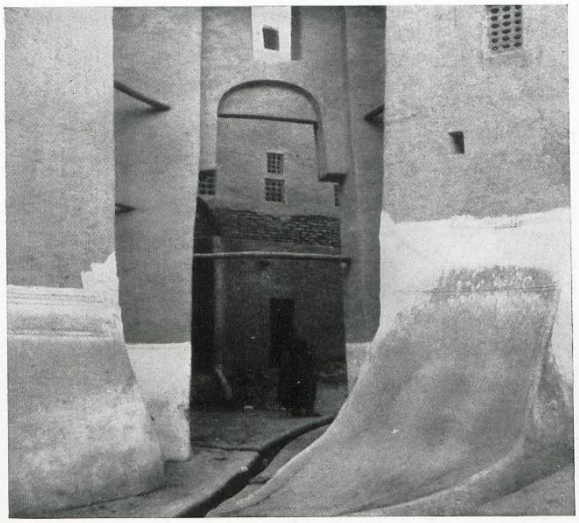

Straße mit Kanalisationsrinne in Schibam

Kalkklopfen in Terim

ومن اللافت أن هانس هيلفريتس، بعكس الرحالة الغربيين الآخرين، لم يركِّزْ في تريم والمدن الحضرمية الأخرى على المعالم الحديثة، بل على المعالم التقليدية القديمة، التي اندثر كثيرٌ منها ولم يَعُدْ بإمكاننا مشاهدتُها إلا في الصور التي التقطها هو وبعض الرحالة الآخرين. وهذا ما يدفعنا هنا إلى التأكيد على أهمية تلك الصور لتوثيق تاريخ التطوُّر العمراني لمدننا. فهيلفريتس مثلًا، ضمَّن كتابَيْهِ (أراض بلا ظلال، والجنوب العربي المنسي) صورة لسقيفةٍ في حي الفجير بتريم، وصورة لكوت (برج مرقبة) كان يطل على تريم. كما وثّقت إحدى صوره طريقة رفع المياه الجوفية إلى الطوابق العليا في قصور تريم بالسناوة وليس بالنزيح.

Straßenszene in Terim

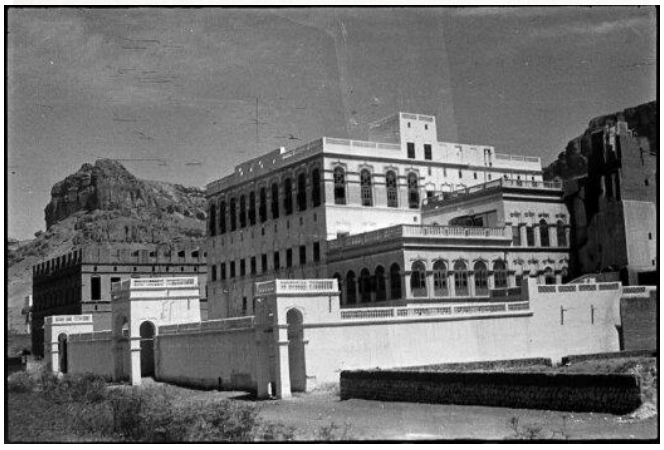

مقود وسناوة سلمانة

وفي سنة 1935 تقدم لنا فريا ستارك، في كتابها (البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية)، هي أيضًا، بعض الملامح الخارجية لبناء البيت الحضرمي التقليدي في سيؤون وتريم وشبام وغالب مدن وقرى الوادي، والتي ظلَّت سائدة في بيوت عامة الناس. وأكدت أن هذه البيوت تختلف في تريم عن بيوت الأثرياء، الذين يفضلون العيش في فلل حديثة وأنيقة تقع في ضواحي المدينة، وتختلف كذلك عن البيوت في سيؤون التي يتناغمَ فيها اللَّونُ البُنّيُّ مع اللون الأبيض، وتفصّل ذلك قائلةً: "بشكل عام تختلف المنازل في تريم، حين لم تتأثر بطراز البناء الجاوي، عن بيوت سيؤون. والطابق الأرضي منها، الذي لا يحتوي على نوافذ، ينتهي عادةً بحزام أفقي مجسّم. والمدخل أيضًا يتمُّ تأطيره داخل بقعة من البياض، وفي الأعلى يتمُّ وضع قموع فوق حزام من الجير، تنحدر من جوانبه المجاري المكشوفة إلى بالوعة مغطَّاة. وفي واجهات هذه البيوت يهيمن اللون البُنّيُّ، ويندر اللون الأبيض الذي يتناغم في سيؤون مع اللون البُنّي. والسبب في ذلك هو أن معظم الأغنياء في تريم يعيشون وسط الحدائق المنتشرة في ضواحي المدينة في مبانٍ حديثة أنيقة ومبهرجة مثل الكازينوهات. لهذا فإن التباين بين القديم والحديث في تريم يُزِيحُ عنك الشُّعورَ بالانسجام الذي يتولَّد لديك في سيؤون". (انظر الصور في الجزء الثالث)

وتعد مدينة شبام أهمَّ محطات هانس هيلفريتس في رحلته الأولى إلى حضرموت 1932. وقد أطلق عليها (شيكاغو الصحراء)، وجعل من هذا الاسم عنوانًا لأول كتاب أصدره عن حضرموت. وقدَّم لنا معلومات كثيرة عن المدينة، فتحدَّث عن موقعها وسبب عدم وجود سور متكامل لها، وارتفاع بيوتها ذات النمط التقليدي، قائلًا: "تقع شبام، شيكاغو الصحراء، في وسط الوادي الكبير على قاعدةٍ طينيةٍ مرتفعةٍ، ولا

يوجد بالمدينة سُورٌ، إلا أن المنازل بأبنيتها العالية ذات الطول والضيق بمنافذها الكثيرة وبأسقفها المستوية المفتوحة والبيضاء مبنية بشكلٍ مُتلاصقٍ، لدرجة أنَّ واجهاتها هي بمثابة موضع أسوار المدينة، فإذا سار المرء من سيئون بمحاذاة الوادي، فسيرى حقًّا على بُعد كثيرٍ من الكيلومترات مدينة ناطحة للسحاب شاهقة بمنازلها المرتفعة، التي قد تصل إلى ثمانية طوابق عن مستوى سطح الأرض".

ويلاحظ هيلفريتس أنَّ الطابق الأرضي في البيت الحضرمي التقليدي لا يحتوي على غرف، وذلك لأسباب أمنية. فهو يكتب في سياقة حديثه عن تكوين المنزل في شبام: "يتحول أي بناء سكن إلى حصنٍ، والسبب في هذا الأسلوب البنائي الغريب، والذي ليس عربيَّ الأصل، هو انعدام الأمن في الإقليم، فجنوب جزيرة العرب دومًا ما ابتلي بالغارات. فغارات البدو لا تزال منتظمة، وقد وقعتُ بنفسي في ثلاث مُناوشات مختلفة أثناء رحلتي، فكل منزلٍ وقريةٍ وكذا كل مدينةٍ، هي عبارة عن حصن مُنغلق على نفسه، فيعزز من تأمينها، وغالبًا ما يكون موقعها على أرضٍ مرتفعةٍ أو منطقةٍ صخريةٍ، ولا يبدأ وجود نوافذ عادةً إلا بالطابق الأول، أما الطابق الأرضي فلا يُستعمل للسُكنى، وإنما كمخزن للبضائع أو حظيرة للأنعام. كما يتم بناء كل هذه المنازل من الطين".

ويلتقط هانس هيلفريتس صورة للمديات [أقفاص الدجاج] في واجهة أحد بيوت شبام التقليدية ويعلق بقوله: "(بإمكان المرأة الحضرمية اقتناء الدجاج، ولأنه من غير المحبَّب أن تترك حجرتها للاعتناء به، فالناس يقومون هنا بتعليق عش [مَدَيَّة] الدجاج على جدران حائط المنزل نفسه من الخارج، وإذا كان المرء يسكن بنايةً مرتفعة بها طوابق عدة، فإن الدجاج الحضرمي يطير ويجعل الأمر مُريحًا للناس، حيث يضع البيض في العش مباشرةً أمام النافذة).

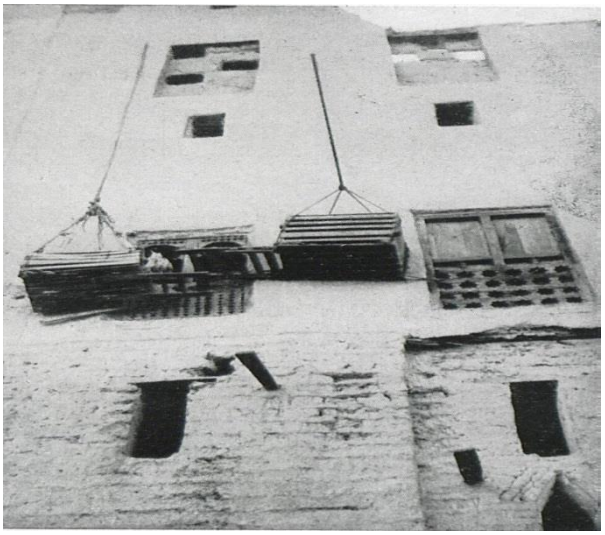

ويقارن هيلفريتس عادة سكان حضرموت وضع قرون الوعل في أركان بيوتهم التقليدية كعادة أهل سكسونيا الذين يضعون مجسماتٍ لرؤوس الجياد فوق منازلهم. ويفسر الرحالة الألماني هذه العادة قائلًا: "لهذه العادة أصول دينية هنا وهنالك؛ فقد كان الوعل من الحيوانات المقدسة، وكان رأس أحد الآلهة يمثل رأس وعل. وقد عثر في مذابح السبئيين على كثير من رسوم رأس الوعل. ومن المحتمل أن يكون شعار إله القمر عند البابليين، وانتقلت عبادته إلى الجنوب العربي أيضًا". (اليمن من الباب الخلفي، ص60)

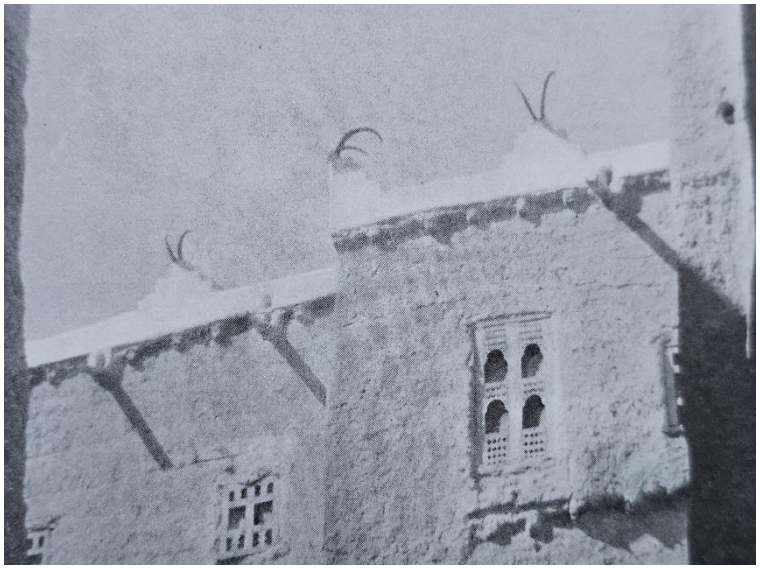

العمران التقليدي للقصور في تريم وسيئون:

ويتميّز فان در ميولن عن الرحالة الآخرين بأنه وصف –بالنص– في كتابه الأول (حضرموت، إزاحة النقاب عن بعض غموضها) الشكل الخارجي لقصر السلطان بسيئون، وذلك قبل أن يتم طلاؤه كاملًا بالجير الأبيض (النورة). وكان منظره الخارجي لا يختلف عن قصر السلطان في شبام. وقد رأى فيه ميولن أفضل نموذج لفن المعمار الحضرمي بالنسبة للقصور. وذكر أنه كان، سنة ١٩٣١، محاطًا بسُورٍ و(أكوات) حراسة، ووصفه قائلًا: "يقف قصر السلطان في أعلى مكان فيها، وهو أفضل نموذج يمر علينا لفن المعمار الحضرمي للقصور. وكل أطراف السطوح والغرف المبنية فوقها مطلية بالأبيض. وفى الطوابق السُفلى هناك شريطان أبيضان فقط يمتدان في خط مستقيم مع النوافذ، بينما منافذ التهوية (الفِتَح) محاطة ببراويز بيضاء مجسّمة. وحُصِّنت أركان المبنى الضخم الطويلة المستطيلة بأبراج مستديرة ومزيّنة. وتصبح جدران الطين السميكة في الأعلى رفيعة أكثر مما هي في الأسفل، لذلك فالجدران الخارجية ليست عمودية، إنما تميل بشكل طفيف جدًا نحو الداخل، مما يعمق الانطباع بالقوة والجمال في المبنى. ويقوم القصر فوق مصاطب مشيَّدة فوق أسوار داخلية، بها منازل حراسة عند البوابات، ومخازن بارود، وإسطبلات، ومساكن للجنود. وعلى بعد مسافة قصيرة يقع قصر سلطان تريم الأنيق، وكله مطلي بالأبيض".

صورة غلاف الطبعة الأولى لكتاب (حضرموت، إزاحة النقاب...)

وعبّر فان در ميولن عن تفضيله للفن المعماري التقليدي الذي كان سائدًا في سيؤن سنة 1931 حتى قبل أن يسرد رحلته إلى تريم. وذكر أنه استطاع هو وزميله فايسمان أنْ يصعدا إلى سطح سقف قصر السلطان بسيؤن، ومنه التقطا عددًا كبيرًا من الصور، وكتب: "تكرَّم السلطان وسمح لنا بالتمتُّع بجمال سيؤن من فوق سطح قصره. والملاحظ في هذا القصر النظام والنظافة، التي تكاد تومض في وجه الزائر. قبل الدخول للقصر مررْنا بمساكن للجنود والزُوَّار. ومضى بعض الوقت قبل أن تُخطر النساء في الممرَّات والسلالم بقدومنا. وعندما أنجز هذا بنجاحٍ تقدَّمْنا عبر ممرات الطين الخاوية، وصعدْنا درجات السُلَّم المتساوية المُشيَّدة تشييدًا جيّدًا إلى السطح الأبيض المُشِعّ. ومنه شاهدْنا أروع منظر في حضرموت. وقد بذلت تريم جهدًا كبيرًا في قصورها الفخمة لتتساوى مع سيؤن، لكنْ هنا الرشاقة، هنا التنوع البهيج للخضرة العميقة، والحدائق المترفة والمنتجعات الصيفية الأنيقة، وهنا التمسك بالأسلوب الحضرمي، نقيًا ومتجانسًا". (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها) ص114

ووصف لنا ميولن كذلك ساحة القصر ومقابر سيؤن سنة 1931، أي قبل تسويرها. وتبيّن إحدى الصور التي التقطها من سطح القصر بقايا قُبَّة (ضريح) يقال إنها ليافع، ولن تبرز تلك الأطلال في الصور بعد تسوير المقابر سنة 1936. ويصف ميولن تلك المقابر قائلًا: "تقع المقبرة تقريبًا في وسط المدينة، وبها خمسة قبور لأولياء، تعلُوها قبابٌ مَهِيبَةٌ تكريمًا لهم. وتبرُزُ العديد من المآذن في المدينة فوق بحر المنازل، لتذكِّرَنا بأن سيؤن كانت في وقتٍ ما قاعدةً شهيرةً للدِّين والعلم. وتتصل المدارسُ عادةً بالمساجد، وما زالت هي الحالة".

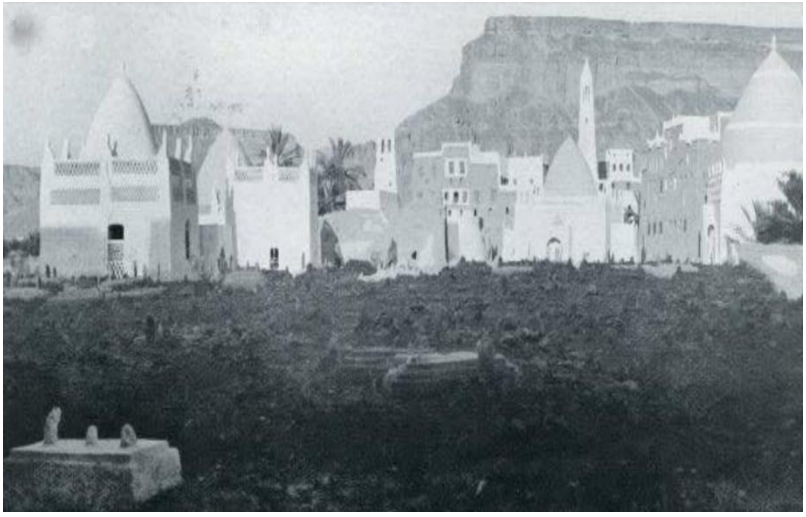

وركز ميولن كذلك على المساحة الخضراء (البساتين الكثيرة التي كانت تحيط بسيؤون خلف ساقية البلاد [شارع الجزائر حاليا]. وزار هود بن أحمد السقاف في داره المنقَّش [دار بلا ملائكة]، والتقط له صورًا عدَّة، منها صورة لمكان صُنعِ القهوة، وصُوَرٌ لقُبَّة الحبيب علي بن عبد الله والمقبرة الملصقة بها. وكتب: "وتحيط بالمدينة حافة عريضة من بساتين النخيل، تتخلَّلها المنازل الصيفية البيضاء هنا وهناك. ومنازل آل السقاف بارزة نسبة لعددها وحجمها.. وقد وضعوا تحت تصرفنا في الصباح، عرباتٍ لنستطيع أن نأخذ جولة في المدينة وما حولها، ونلتقطَ صُوَرًا فوتوغرافية. واغتنمْنا هذه الفرصة شاكرين، فقد مكَّنتْنا من وضع سجلٍّ بالصور لبعض المنازل الأنيقة والمناظر لهذه المدينة، التي تقع وسط غابة من النخيل في وسط الصحراء. وعندما كنا نأخذ صورًا لمنزل السقاف في المدينة كان من المستحيل أنْ نتحاشى دعوة السيد هود السقاف لنتناول معه كوبَ شايٍ، ووعدْناه بتلبية دعوته حال ما ننتهي من أخذ الصور. ولا يمكننا أنْ نمرَّ على المقبرة دون أن نأخذ لقطاتٍ لبعض المقابر وقبابها ذات اللون الأخضر وجمالها الذي يخلو من المباهاة. وهناك عدد من المساجد الصغيرة في منظر خلاب".

دار هود السقاف في ثلاثينيات الفرن الماضي

تقديم هانس هيلفريتس لعمران قصر السلطان بسيئون 1932:

وبالنسبة لهانس هيلفريتس فقد ركز خلال زيارته الأولى لمدينة سيئون سنة 1932 على تقديم قصر السلطان والسقايات. وتعد صور هيلفريتس لقصر سيئون في نهاية سنة 1932 هي التي توثق بشكل متكامل وواضح قصر السلطان بسيئون قبل ترميمه وتنويره، لكنه، بعكس ميولن، لا يستطرد نصِّيًّا كثيرًا حول القصر الذي يسميه (قصر الأساطير)، ويكتفي بكتابة: "لا يوجد في جنوب جزيرة العرب، بناءٌ أثريٌّ يضاهي قصر السلطان علي بن منصور الكثيري في سيئون، ذي المساحة الشاسعة وجمال الشكل، فهذا القصر يبلغ عمره أربعمئة عام. وسيئون هي الأكبر في وادي حضرموت، حيث يبلغ عدد سكانها قُرابة العشرين ألف نسمة، يقطنون في حوالي ألف وتسعمئة منزل، وتبعد مسيرة يوم عن مدينة تريم، كما تعد سيئون مكانًا قديمًا وجديرًا بالاحترام في كل نواحي حضرموت، فهي تتميَّز بمساجدها القديمة الرائعة، التي لا يزال باقيًا منها قرابة خمسين مسجدًا، وكذا أسوارها وقصورها القديمة. كما إن المدينة المقامة منذ وقت بعيد بها العديد من المقابر المتهدمة وقبب الأولياء. وهناك يجد المرء أيضًا ضريح السلطان الكثيري الأول، الذي قدم إلى سيئون وهو السلطان بدر بو طويرق. وليس بإمكاننا أن نشتكي من سلطاننا، فلقد أعدَّ لنا السلطان عليّ الطيب في قصره، الذي تدور حوله الخرافات بكامل حجراته، والتي اتخذنا منها مسكنًا لنا ولجنودنا ولخادمنا سعيد". ص163-165

Das Märchenschloß in der Wüste

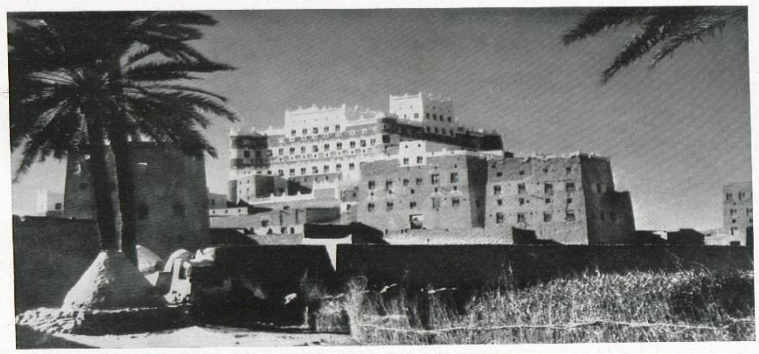

Sultanspalast von Sejun

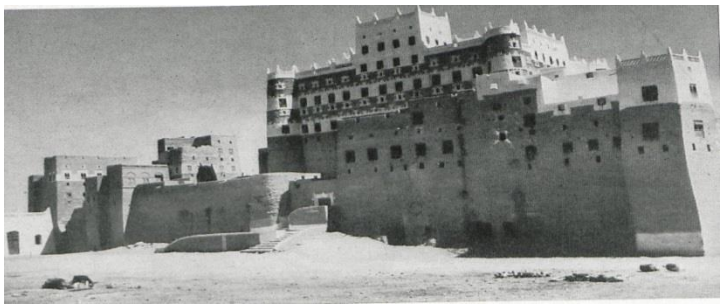

Palast des Sultans von Sejun

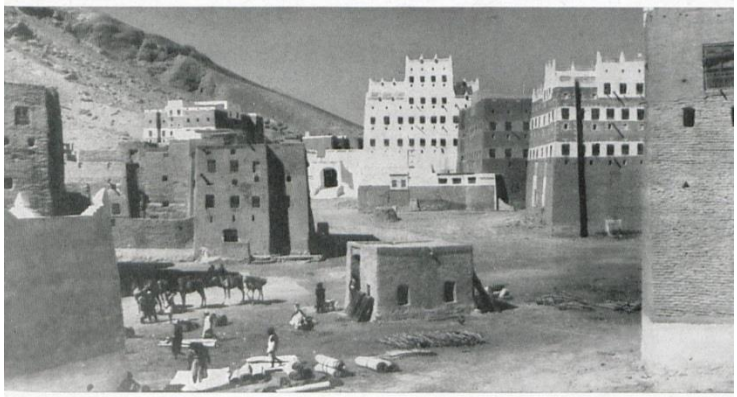

Palast des Sultans von Terim in Sejun

ويتحدث هيلفريتس أيضًا عن السقايات، أماكن حفظ ماء السبيل أو الشرب للعامة، في سيئون قائلًا: "هناك طريقة لرفع المياه الجوفية [السناوة] وحفظها في سقاية بيضاء نظيفة تغطيها قبب عالية، ويجدها المرء في جميع أنحاء حضرموت، فهذه السقاية ليست بحق بئرًا، وإنما عبارة عن حوض مستوٍ، يعلو أساسًا مربع الشكل ويسقف بقُبَّة، ومن خلال فتحة يمكن الوصول إلى الماء بمغرفة خشبية، وهذا الماء يرفع غالبًا من البئر بصهريج [غارب]، وتعتمد صيانة هذا البئر على العمل الخيري". ص164

سقاية الشفاء بسيئون

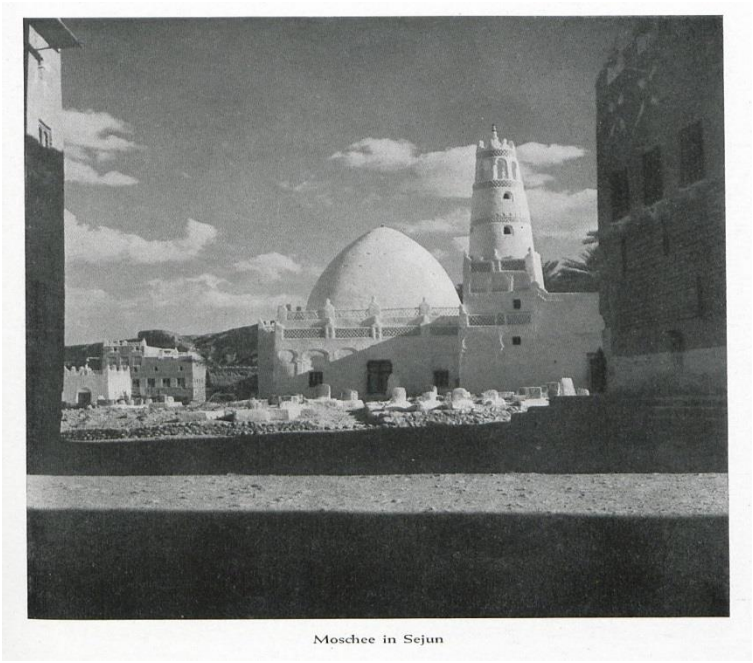

قبة الحبيب علي بن عبد الله بسيؤن

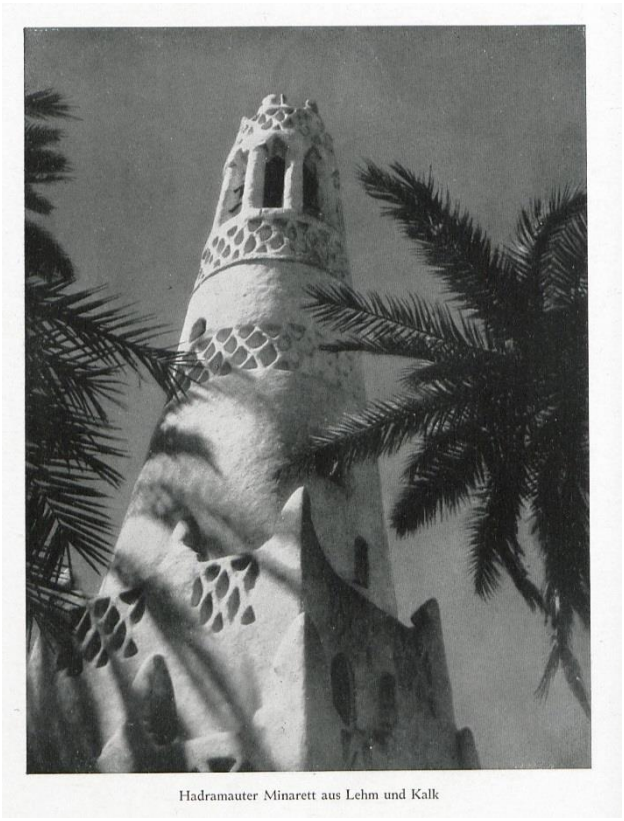

منارة مسجد عبد الملك سيئون

وفي الفصل المكرس لسيؤن في (البوابات الجنوبية 1935) تؤكد ستارك تفضيلها لسيؤن بسبب حفاظها على النمط التقليدي لمساجدها وزخرفة بيوتها، ونلاحظ أنَّ فريا ستارك، التي تهمل وصف مسجد المحضار في تريم الذي انتقده فان در ميولن، تحرص على تقديم وصفٍ جيّدٍ لجامع سيؤن، وترى أنه يمثل النموذج التقليدي لمساجد حضرموت. وتصف الجامع وقصر السلطان والسوق الشعبي الذي حوله قائلة: "سيؤن، فضلًا عن نظافتها، مدينة مريحة، وفيها جامع شُيِّدَ وفقًا للأعراف القديمة، حيث توجد به سبعة صفوف من الدعامات. ومثلما هي الحال في تخطيط أيّ مدينة إقطاعية، تحتوي سيؤن على سُوقٍ وقصرٍ للسلطان ومقبرةٍ في وسط المدينة. وفي يوم التسوُّق ينتصبُ قصرُ السلطان بأبراجه الأربعة فوق بحرٍ من الجِمَالِ وبائعي الغنم والحمير والسلال المصنوعة من خوص النخل، وبائعي الخضار المقرفصين على قارعة الطريق، وكذلك باعة الملح والمسامير والأحذية، والنساء اللاتي يلبسْنَ قُبَّعاتٍ طويلةً ويبعْنَ الشالات الصوفية".

وتقدم فريا ستارك وصفًا شاملًا للتخطيط العمراني للمدينة في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، وتذكر نظافة الشوارع واحتواء كُلٍ منها على مسجد ملحقة به سقاية تظللها نخلة أو نخلتان. وتلاحظ أنَّ منازل سيؤن بها زخارف تقليدية ونوافذها جميلة، ولها مدخلان: أحدهما للرجال وآخر للنساء. وتذكر كذلك سوق سيؤن الذي حول قصر السلطان. وتبيّن إحدى الصور التي يتضمَّنها الكتاب أنَّ قصر السلطان قد تمّ الانتهاء من طلاء أجزائه العليا بالجير الأبيض (النورة)، وتمّ الانتهاء من تشييد دكاكين الوقف، لكنْ سُورُ المقبرة الذي يبرز في صور فان در ميلون سنة 1938 لمْ يكنْ موجودًا في مطلع سنة 1935.

قصر سلطان سيؤن سنة 1935 ستارك

قصر سلطان سيئون سنة 1935 تصوير فريا ستارك

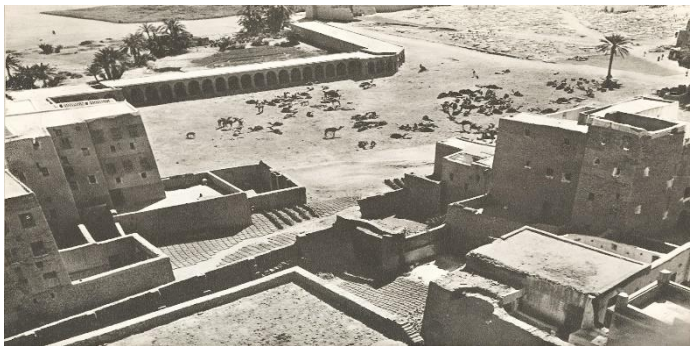

ساحة قصر سيئون (مشاهد من حضرموت)

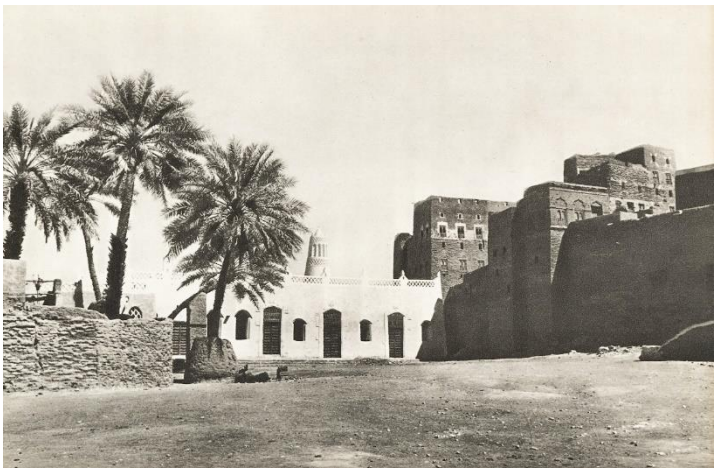

جامع سيئون (مشاهد من حضرموت)

Minarett und Brunnen im Hadramauter Stil

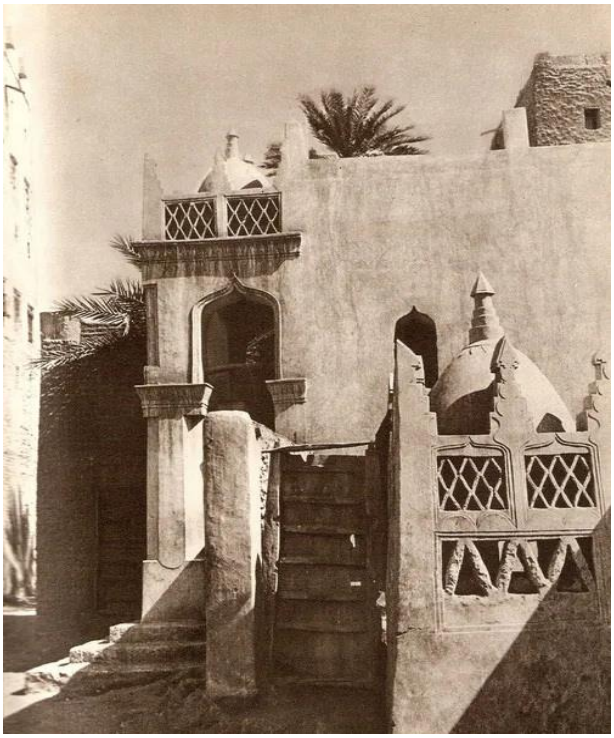

مشاهد من حضرموت

وذكرت ستارك سنة 1935 أن أسوار مدينة سيئون تتساقط بسبب عدم الحاجة لها في ظل الأمن السائد، وتبرز إحدى الصور التي التقطتها لسيئون بقايا الجزء الشرقي من السور الذي يبرز حصن الفلس بحي القرن.

ثانيًا- التغيرات العمرانية في سيئون وتريم وشبام 1931- 1939:

يرتبط كثير من التغيرات العمرانية التي طرأت في مدن وادي حضرموت في ثلاثينيات القرن الماضي بالمؤثرات الخارجية. وقد ذكر الرحالة الهولندي فان در ميولن في كتابه (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها)، الذي سرد فيه زيارته لحضرموت الأولى لحضرموت سنة 1931، أن تريم هي أول مدينة تأثرت بالنمط العمراني الخارجي، وذلك بفضل آل الكاف وبعض المغتربين الذين استثمروا جزءًا كبيرًا من الأموال التي عادوا بها من المهجر في مجال العمران بشكل أساسي. ففي سنة 1931 لاحظ ميولن أن تريم تتميّز عن سيئون بدخول ألوان غير الأبيض والرمادي والطيني البني، وكذلك نمط جديد من المآذن يختلف عن النمط الحضرمي المستدير، وكتب: "كنّا قد شاهدْنا أول منظر لتريم من حافة الجبل. فالمدينة تقع في السهل الصخري القاحل جدًا. وتريم ليست بنيّة وبيضاء كما هي الحال بالنسبة لسيئون، بل يكسُوها خليط من كل الألوان الزاهية: ففي جانب منها تغلبُ الزُّرقة، بينما يغطي اللونان الأصفر والوردي جانبًا آخر. وهناك مئذنة عالية جدًا مربَّعة الشكل، وليست مستديرة، ومطليَّة بلون أزرق خفيف، ترتفع وسط أشجار النخيل والمنازل. وتُعَدُّ تريم مدينة خاصة بالعديد من الأثرياء؛ ومن السهل ملاحظة ذلك حتى من بعد".

ومِثلُ غالبِ الرحَّالة الغربيين ركَّز ميولن على ظاهرة تهجين القصور والبيوت الريفية في تريم، ورصد منذ زيارته الأولى تلك تأثُّر قصور تريم بالنمط العمراني الهندي. فهو يشير إلى أنّ القصر الذي استضافه فيه أبو بكر الكاف كان سنة 1931 لا يزال في مرحلة التشييد، ووصف القصر وأثاثه الغربي بشكل مُسهَبٍ، قائلًا: "بعد أنِ اجتزْنا شارعًا ضيّقًا مُلتَوِيًا وصلْنا إلى منزل السيد أبوبكر بن شيخ الكاف ذي الشهرة الواسعة. وقد بدا لنا (القصر) كبيرًا رغم أنَّ بناءه لم يكتمل بعد. وحالما اجتزْنا بوَّابةً طينيَّةً شاهدْنا الحديقة التي لا يزال العمال يُنجِزُون فيها بعض الأعمال بأدواتٍ خاصَّةٍ بالبناء الطيني. وفي الحديقة كان الفقراء ينتظرون الصدقة، والزُوَّار يدخلون ويخرجون. وقادنا البوَّابُ إلى

غرفة استقبالٍ تقعُ في الجناح الجديد، ومؤثَّثة على الطراز الغربي". وأسهب ميولن كذلك في الحديث عن التأثر بالنمط العمراني الهندي والغربي عند سرده لزيارة منزل عمر الكاف داخل المدينة.

وبسبب المبالغة في التأثر بالنمط الخارجي في قصور تريم يرى ميولن أن قصور سيئون وشبام أصبحت هي الأجمل؛ فهو يُنهِي حديثه قائلًا: "ليستْ هناك مدينة حضرمية أظهرتْ نشاطًا معماريًّا مثل تريم، والعمل له طبيعته المحلية الخاصة ونوعه. ولكن قصور سلاطين شبام وسيئون أكثر جمالًا.. والآن تقف الأجيال الحديثة تراقب في تجهُّمٍ. والآن ترى تريم انتقال مركز حركة التجديد إلى سيئون. وأصبحت مكانًا صامتًا، وفقدتْ أهميَّتها عندما غادرها رجلُها النشط، السيد أبوبكر، الذي لم يتهرَّبْ من المسئولية أبدًا، بل واجهَها بكل شجاعة، واتخذ من سيئون موطنًا له".

وتحدث ميولن كذلك عن المساجد المهجنة في تريم منذ رحلته الأولى، وأكد أن النمط الحديث من المساجد ذات المآذن المربَّعة العالية بدأت تنتشر في تريم منذ العقد الثاني من القرن العشرين، وتنافس المآذن الحضرمية الأصيلة مستديرة الشكل. وكتب في سرد رحلته الأولى إلى حضرموت: "في إحدى العصريات ذهبْنا بصحبة ابن مضيفنا والطبيب وصعدْنا أعلى مئذنةٍ في حضرموت. لا أحد هنا يعرف ارتفاعها الحقيقي الذي قدرناه بـ:15 مترًا. ومن المؤسف أن هذه المئذنة المربعة مبنية على الطراز الحديث. فالمآذن الحضرمية الأصيلة مستديرة وتضيق قليلًا عند القمة. ويزيّنُها طوقٌ وحيدٌ من الشيش، وفي قمَّتها عمدانٌ صغيرة تقفُ عليها القبة الصغيرة. ويبرز اللون الأصفر الشاحب جليًا تحت السماء داكنة

الزرقة، وفوق أشجار النخيل بألوانها الرمادية الخضراء. لكن هذه المئذنة المربعة والملونة بالأزرق والأبيض بها كثير من النوافذ الصغيرة، وتزينها حواشٍ رمادية. وهي تضيق أيضًا عند القمة التي وصلناها بسلالم طينية لا تتسع إلا للأشخاص النحاف. وفي القمة هناك أيضًا قُبَّة صغيرة بها أعمدة يقف عليها السقف. من تلك القبة امتدَّ بصرُنا لنرى بانوراما رائعة: في وسط الواحة الخضراء تناثرت القصور ذات الألوان الزاهية، وفي الأفق شاهدْنا سهول الوادي الشاسعة والمساحات الرملية الجرداء، وجبال الجول الداكنة. ومن هنا يرى المرء بوضوح أن تريم مدينة عريضة، وكثير من منازلها الضخمة الجديدة لا تزال في طور التشييد. وتشكل مقبرتُها بقبابها الثلاث فضاءً شاسعًا فوق قبور الأولياء والصالحين. والمساجد هنا كثيرة وتتميَّز بمآذنها ذات الأشكال المختلفة، فمنها المربعة العالية، ومنها المستديرة القصيرة. أما قصر السلطان فيطل على وسط المدينة من فوق رابية منخفضة. في ذلك المكان الضيق من أعلى المئذنة كُنَّا نشعر – ونحن نقوم بالتصوير والمسح وعمل المخططات، أننا نتأرجح برفقٍ إلى الأمام والخلف. نعم، لم يكن مُبهِجًا أن نشعر في ذلك العلو الشاهق أننا نقف فوق سطح الأرض على برجٍ رفيع مصنوع فقط من طين مجفف".

وذكر هانس هيلفريتس في مقدمة كتابه (الجنوب العرب المنسي، ص9)، الذي نشره سنة 1936، أنه عاد إلى ألمانيا في ربيع عام 1932 وأصدر كتابه الأول: (شيكاغو الصحراء). وأشار سنة 1936 إلى التغيّرات التي طرأت على جنوب الجزيرة العربية بشكل عام منذ تلك الرحلة؛ مثل الحرب بين ابن سعود والإمام يحيى من اليمن. وذكر أنه قد تمكّن من زيارة جنوب الجزيرة العربية مرتين أخريين، مما سمح له بتعميق انطباعاته وإعادة صياغة النص، ووسّع الجزء الخاص بالصور التي التقطها باستخدام كاميرا (لايكا)، وذلك "بهدف تقديم لمحة أفضل عن هذه الأرض البعيدة والمختلفة عن شمال الجزيرة العربية في طبيعتها وسكانها ومستوطناتها".

أمَّا فريا ستارك فلم تزر مدينة تريم إلا خلال رحلتها الأولى إلى حضرموت في مطلع سنة 1935. وقد نزلتْ في بيت أبي بكر الكاف، وأكَّدتْ ما كتبه ميولن سنة 1931 بشأن تأثُّر نمط البناء في تريم بالخارج في وقت مبكر؛ فهي ذكرت أن نوافذ البيت الذي نزلتْ

فيه هناك وأثاثه تبيّن تأثره بالغرب، وتصف ذلك قائلةً: "تمكنت، في بيت السيد أبي بكر بن شيخ الكاف، أن أستمتع بأرقى وسائل الراحة الحديثة. إذ إنهم أنزلوني في غرفة ضيوف مؤثثة بثراء، ولها أربعة أبواب، وثمان نوافذ ذات زجاج ملوَّن يُذكِّرُني في بعض الأحيان بجناحٍ في قصر برايتون، وفي أحيان أخرى بإحدى الكنائس، وذلك وفقًا لمزاجي في تلك اللحظة". وأكد فان در ميولن في كتاب (رحلة في جنوب الجزيرة العربية)، أن أحد أهداف رحلته الثانية إلى حضرموت، في مطلع سنة 1939، يكمن في رصد التغيرات التي طرأت في وادي حضرموت منذ مطلع الثلاثينيات، وفي مقدمتها هيمنة النماذج الغربية والهندية على العمران في تريم وسيؤن. وقد انتقد بشدة سعي الحضارم إلى تحديث النمط العمراني التقليدي، وتأثرهم بالهندسة المعمارية في شرق آسيا. ويذكر أن الإيجابية الوحيدة التي رصدها في رحلته تلك تكمن في ترميم الخرائب وتنظيم التخطيط ودخول الهاتف (التلفون). أما السلبيات فهي كثيرة؛ وأولها: التصاعد المحموم للبناء وزحف العمران على حساب الحدائق والبساتين، وكتب: "انتهزنا أيام الراحة في سيؤون للقيام برحلة إلى تريم. فهذه المدينة التي اشتهرت يومًا ما بالعلم في جميع أنحاء النصف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، أصبحت اليوم مكانًا لبثِّ الأفكار الجديدة. ما الذي حدث لتريم خلال الثماني السنوات الماضية؟ قبل أن تحل حرارة الظهيرة ذهبْنا إلى المدينة لنأخذ انطباعًا جديدًا عن تريم بعد ثماني سنوات. لقينا الطوب الطيني مُلقًى في كل مكان في الطرقات أمام المنازل العديدة التي في طور التشييد. ومنازل أخرى عديدة كانت خرائب تمت صيانتها أو إزالتها. الآن تبدو المدينة أكثر نظامًا وأفضل وأكثر جِدَّة. عبَرْنا بعض الأماكن الحديثة التي يمتلكُها أمراء المال من سنغافورة وجاوا. وفي منتصف الطريق في جدار الوادي شاهدنا البانوراما. تبدو التغييرات من البعيد أقل وضوحًا، ولكن يستطيع الإنسان إدراك أن العلاقة بين المساحة المبنية وبساتين النخيل قد تغيّرت: لقد أهملت البساتين بينما تصاعد الاندفاع المحموم للبناء. بساتين تريم تصيح الآن مطالبةً بالاهتمام. ومررْنا أمام المقبرة التي ظلت كما هي مصانة بشكل فائق. واتجهنا مباشرة إلى منزل الكبير عمر بن شيخ الكاف، الأخ الأصغر للسيد أبو بكر، والذي زُرنَاهُ في رحلتنا الأولى. ومن الواضح أن تريم قد عاشت لحظات عصيبة في السنوات الأخيرة. ورغم الآثار السلبية التي تركتها تلك اللحظات فحركة التعمير والتطوير ظلَّتْ مستمرّة في المدينة. وحينما قابلنا مُضِيفَنا قبل ثماني سنوات كان قد عاد على التو من حياة التجارة الصاخبة في سنغافورة. وكان قصره يومئذ جديدًا. ومنذ ذلك الحين شيّد قصرًا آخر أكثر أُبَّهَةً وإثارة لعائلته التي يزداد عدد أفرادها باستمرار. وشعرْنا في بيته في تريم أننا في المدينة الأكثر حداثة في حضرموت. وأدركْنا أننا سنلقي هنا كُلَّ الترحاب. كما حظي كل من الرحالة فلبي وفريا ستارك باستقبال حار في هذا المنزل عندما زارا تريم".

– المتغيرات العمرانية في قصر سلطان سيؤون سنة 1939:

في مطلع سنة 1939، عندما وصل ميولن إلى سيؤون كان علي بن منصور قد توفي وتولى أخوه جعفر الحكم، وتفاجأ ميولن بكثير من التغيرات؛ فالمقابر أحيطت بسور، وقصر السلطان طُلي كُلِّيًا بالنورة، وأدخلت عليه بعض المؤثرات الهندية، ورصد بأسًى تلك التغيرات في كتابه الثاني (رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية، ص 215): "وجدنا طريقنا بصعوبة إلى قصر السلطان الذي يقعُ بين المدينة القديمة

بمبانيها الفقيرة وحي الفيلات بحدائقها. وعلى بعد مسافة قصيرة تقع المقبرة وبداخلها قبابها العديدة الجذَّابة، وقد أحيطت الآن بسور. الساحة حول القصر عريضة وهي مُهِمَّةٌ بالنسبة للمدينة، وكذلك بالنسبة للمبنى الذي اعتقدنا في مرَّةٍ أنه أجمل ما أبدعه الفنُّ المعماريُّ الحضرميُّ يقف الآن في حُلَّةٍ جديدة، ناصعَ البياض من القمَّة إلى القاع. وأقيم سياجٌ عالٍ عريضٌ في الواجهة، يصله بَهْوٌ بأبواب عالية وشبابيك مع كتلة كانت في الأصل ميدانًا. والإضافة بها لمسة هندية مميزة، ولها مقابلة عكسية مع البساطة الشديدة وقوة البنيان الحضرمي الأصلي. وتستدقُّ الأبراج المستديرة في الأركان الأربعة كلما زادت في الارتفاع وهي الآن مُتَوَّجَةٌ بقُبابٍ هنديَّة. لقد فقدتْ طابعَها الدفاعي الصامد الذي لا يستسلم، وصارت بلا معنى وقبيحةً. ونظرْنا إلى التحوُّل بأسى".

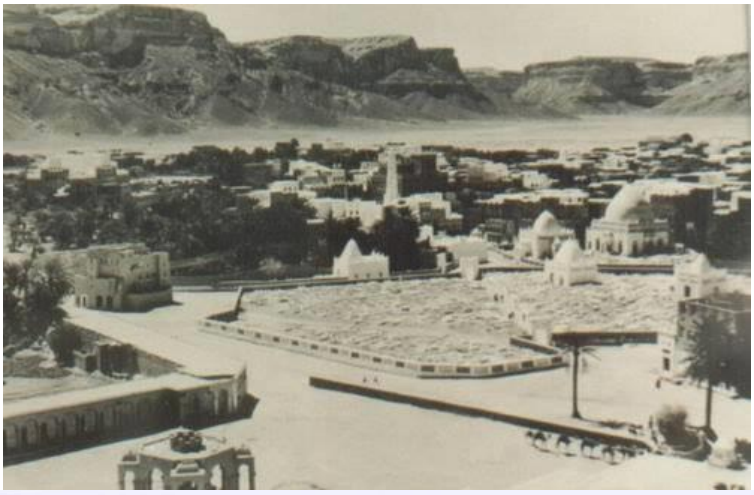

صورة لمدينة سيئون

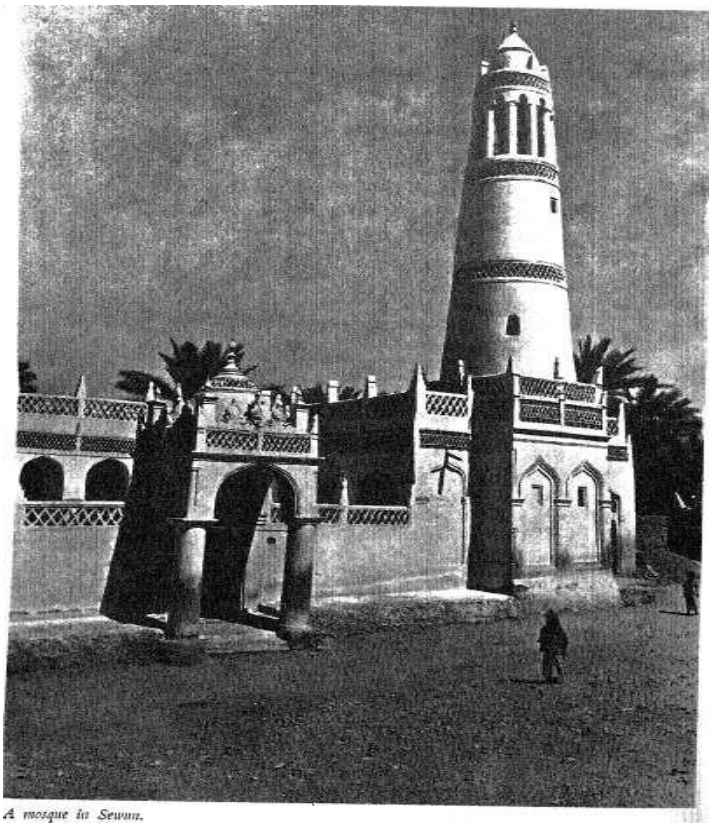

A mosque in Seiyun.

مسجد الرياض سيئون

<u>الفلل والبيوت الريفية المهجنة:</u>

يذكر فان در ميولن أنه في الزيارة الثانية لشبام نزل وزميله فيسمان ضيوفًا على آل لعجم، الذين أسكنوهما في بَنَقَّلَتِهم بسحيل شبام، الذي منذ مطلع القرن العشرين أصبح المكان الذي تُفضِّل العائلات الغنية أنْ تبني لها فيه بيوتًا صيفيَّة أو بناقلَ بلمساتٍ هنديَّةٍ أو جاويَّة، وهي في الغالب بيتٌ يحتوي على غرف استقبالٍ في الطابق الأرضي، تحتوي على أروقة، تطلُّ عليها النوافذ، وكذلك برك مياه ومسبح ومصطبات (تكك أو أحواش) تحيط بها الأشجار. فقبل أن يقوم السيد أبوبكر بن شيخ الكاف ببناء منزله في بئر بن داعر وسط مدينة سيئون في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، ويجعل منه استراحة لاستقبال الأجانب، أقدمت عائلة آل لعجم بتشييد بنقلةٍ جميلةٍ في الطرف الشرقي من سحيل شبام. وقد وصف ميولن منظر الطريق إلى هناك في النصِّ الآتي: "من الطريق لمْ نرَ إلَّا القليل من بساتين النخيل والبناقل الصيفية التي تتوسَّطُها؛ إذ إنَّ الأسوار الطينية العالية تحجب تلك الحدائق من النظرات المتلصّصة للعابرين. وبرز أمامَنا استثناءٌ واحدٌ وهو بناء جديدٌ شُيِّدَ على نسقٍ حديث، وخُصِّصَ لنادي شباب شبام. وبما أنَّ النساء لا يأتين في هذا الوقت إلى بناقل السحيل التي يفترض أن تصبح السكن الصيفي للعائلات، فليس هناك شيء يُخفِيه الرجال. وبعد مسافة عطفت السيارات في اتجاه بوَّابةٍ تقود إلى حديقة آل توي وآل لعجم. وهناك خلف البنقلة توجد بئرٌ، يَسحَبُ منها الثيرانُ والحميرُ الماءَ الصافي، وإن كان مالح الطعم قليلًا. وزُرِعت حول المكان أشجار الباباي والموز وشجيرات الرُّمَّان والليمون وكذلك النخيل. ويقع المبنى الصيفي في أقصى البستان. لقد

كرَّس مُضِيفُنا وقت فراغه لبنائه، وجاء البيت ثمرة الخيال الحضرمي، المتأثر بسنغافورة وجاوا. لذلك تمَّ طلاء جدرانه الخارجية بالأخضر الناعم والوردي والأزرق السماوي بدلًا من لون الجير الأبيض، وركبت نوافذ كبيرة ذات زخارف ملوَّنة. وألحق بالبنقلة حوضُ سباحةٍ له مصطبَّةٌ مرتفعة. إن المرء يتوقُ هنا لمثل هذا الألوان الزاهية، التي يَندُر وُجودُها في هذه الأرض المغطَّاة دائمًا بالشمس. ويهسهس في هذه البنقلة الساحرة نغمٌ رقيقٌ، يتكون من اهتزاز سعف النخيل والرمادية والخضراء، ويسحرك كذلك لون الصخور الأصفر البني المهيمن في الخلفية".

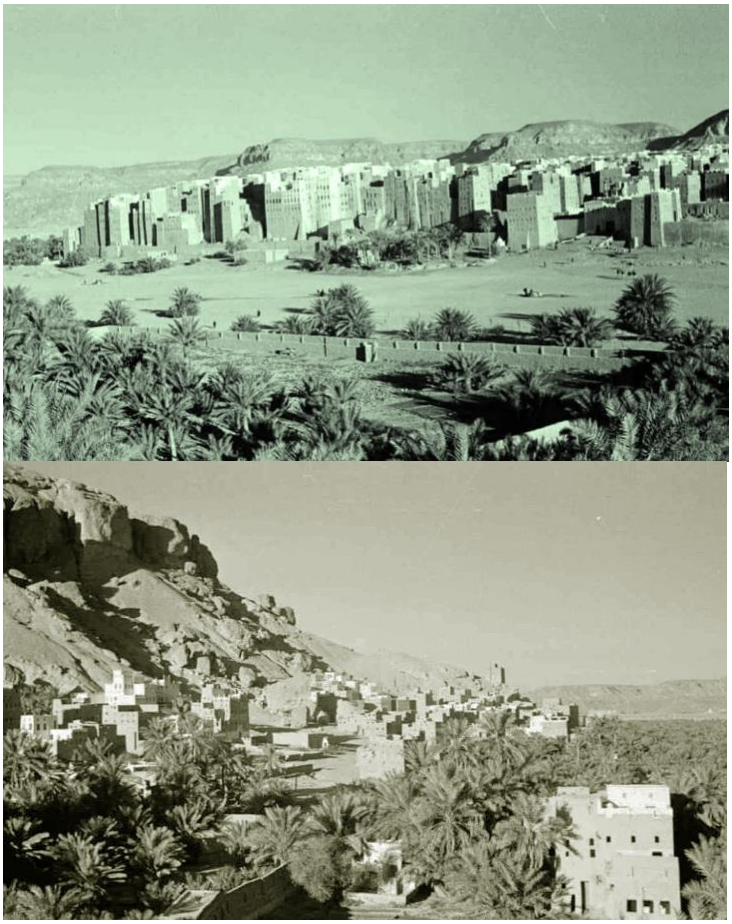

وقبل سنة 1936، عندما انتهى أبوبكر بن شيخ الكاف من تشييد استراحة بن داعر، لم يكن في سيئون أي دار لاستضافة الزُوَّار أو الرحَّالة الغربيين. قبل ذلك كان السلطان علي بن منصور يستضيفهم ويسكنهم في منزله الصيفي (فيلا عز الدين)، (وحينذاك كانت الفيلا تشبه كثيرًا ما يطلق عليه الحضارم البنقلة)، التي تقع في الجانب الشرقي من ساقية البلاد [شارع الجزائر حاليًا]، داخل السُور الذي كان يحيط بالمدينة. وقد قدّم لنا فان در ميولن، في سرد رحلته الأولى سنة 1931، فيلا عز الدين بإيجاز، مؤكدًا أنه رأى فيها نوعًا هجينًا من المنازل الريفية الحضرمية المبنية وسط البساتين، وكتب: "علمْنا عند بوابة القصر السلطاني الضخم أن السلطان ينتظرُنا في مقرِّه الصيفيّ المُسمَّى عز الدين.

وكم أصبحت سيؤون، مدينة البساتين هذه، قريبةً إلى قلبي. فكثيرٌ من العائلات الثريَّة تعيش في قصورها المحاطة بالبساتين الخضراء طوال العام. وبعد أنْ عبرْنا بوَّابةً في سُورٍ من الطين، صعدْنا بالعربة ساحةً كبيرةً مُحَاطَةً برَوَاقٍ طويلٍ أبيضَ من طابقٍ واحدٍ فقط. وتبرزُ قمم أشجار النخيل من حافة مصطبَّة السطح الشاسع، الذي كان جزءٌ كبيرٌ منه مُغَطًّى بالسُّجَّاد. هناك كان ينتظرنا سلاطين سيؤون وتريم وهم مُحَاطون بمستشاريهم".

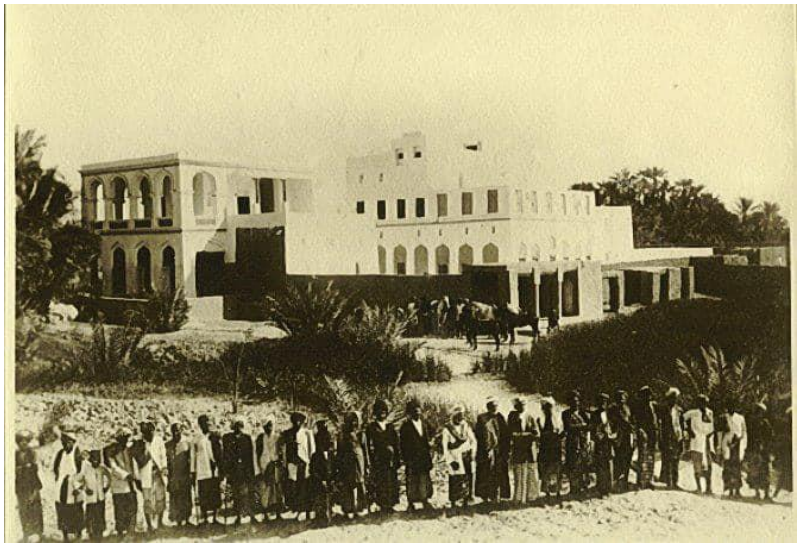

ساحة فيلا عز الدين

وفي الزيارة الثانية لسيؤون سنة 1939 قام ميولن بزيارة للسلطان جعفر بن منصور في بيته الصيفي "الزعفراني الأصفر"، القريب من فيلا سلفه، ويلاحظ هنا أيضًا الكثير من التغيرات وزيادة استخدام الألوان وانحسار البساتين بشكل كبير بسبب التمدُّد العمراني، وكتب: "عبرنا مجرى السيل الجاف الذي يفصلنا عن المدينة البستانية. وهناك أيضًا يبدو أن الكثير قد تغيّر. في الأيام السابقة كانت النخيل الخضراء مهيمنة والمنازل الريفية تطل فقط من فوقها. الآن شيدت منازل أطول ولم تحتفظ بالنسق القديم؛ فلون الطوب الطيني البني والبياض الذي يومض باتساقٍ تامٍّ مع الخضرة الناعمة لأشجار النخيل تراجع أمام ألوان الأدهان المستوردة من أسواق الغرب. وهناك بناية طويلة بلون أخضر فاتح تَجذِبُ الانتباه بصخب؛ إنَّها تصرخ بالمفارقة مع محيطها، وعندما دقَّقْنا النظر رأينا أنَّ لها إطارات نوافذ من الليلك وحدودها أيضًا من الليلك على امتداد القمة، وحتى تكتمل المأساة قرأنا بحروف لاتينية عريضة على واجهة الجدار: S.A. Building وعلمْنا لراحتنا أنَّ هذا الاسم لا علاقة له بشعارات النازيين السياسية، بل يعني بكل بساطة أنَّ سلطان علي ".S.A "، هو الذي بني هذا المنزل. وعادتْ أفكارنا ثماني سنوات إلى الوراء، عندما استقبلنا السلطان نفسُه في حديقة الفيلا المتواضعة عز الدين. ويا لها من بساطة وجاذبيَّة كانت هنا. وحتى إذا لم تكنْ هناك أسماء منقوشة خارج المبنى كنا سنتذكَّرُها؛ لأنها كانت منسجمة مع البيئة المحلية. ولمْ يختفِ كل الجمال الحقيقي؛ فما زال جزء من القديم قائمًا، لكن كل الجديد تقليدٌ بائسٌ

للغرب مع مبالغة في كل من الشَّكل والألوان. لقد شيّد السلطان الحالي [جعفر بن منصور] بجانب مبنى الليلك منزله الريفي الجديد بلون الزعفران الأصفر. ولا يزال عز الدين هناك ولكن مع إضافة طابقٍ أعلى، وقد حافظ على مظهرِهِ الخارجيّ الأبيض البسيط، ولكن ما عاد يسترعي الانتباه؛ إذ إنَّ البنايتين الجديدتين شوَّشتْ على جمال البستان الهادئ".

وفي كتاب (البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية) قدمت لنا فريا ستارك هي أيضًا وصفًا دقيقًا لفيلا عز الدين، التي نزلت فيها خلال زيارتها الأولى للمدينة في مطلع سنة 1935، والتي نزل فيها قبلها فان در ميولن. فقد كتبت: "دلَّنا بعض الناس على موقع "فيلا عزالدين"، التي يسكنها السلطان في أثناء أشهر الصيف الحارة، والتي من المقرَّر أن أقيم فيها. من البوابة الخارجية للفيلا دخلْنا إلى حوش أبيضَ، مُحَاطٍ برَوَاقٍ مُقَنطَرٍ، تَقُودُنا من وسطه بضعُ درجات إلى الطابق الأول. وأمامَ المبنى هناك بِركَةٌ ذاتُ حوافَّ بيضاءَ وماءٍ أخضرَ يُصدِرُ هسيسًا رقيقًا. ومن المبنى الرئيسي يقودنا رواق إلى ملحق ذي طابق واحد مكوَّن من صالة وغرفة نوم، وقد طلي بالجير الأبيض (النورة). وكان سعف النخيل الأخضر يلامس جدران المبنى ونوافذه من الخارج. أما في الداخل، فقد كانت الغرف جميعُها بيضاءَ وتحتوي على أثاث فاخر: صوفٍ وكراسٍ منجَّدةٍ بالمخمل ومرصوصة بشكل دائرة، وطاولات صغيرة. وتحتوي غرفة النوم على ناموسية وردية اللون ومخدات ناعمة ووردية هي أيضًا. لقد كانت "فيلا عزالدين" مرفأ السلامة".

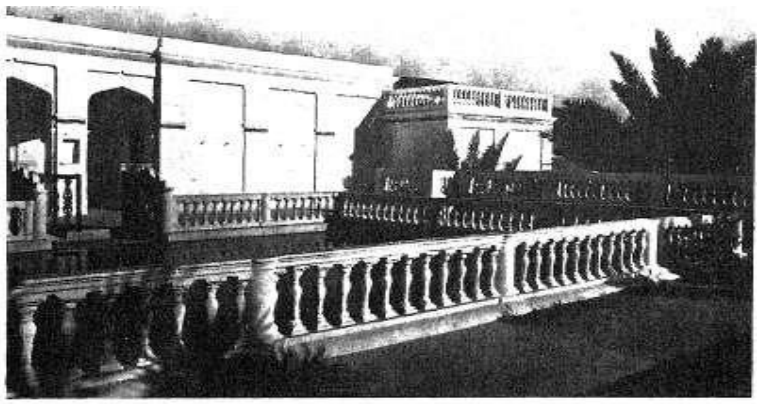

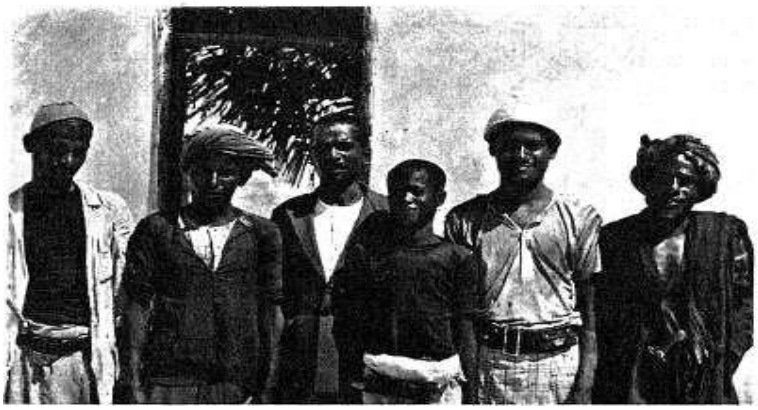

وقامت فريا ستارك، خلال رحلتها الأولى إلى حضرموت –سنة 1935–، بزيارة خاطفة لاستراحة بن داعر، وقالت إنها كانت في طور التشييد، وإنّها أول مبنى في سيئون يستخدم فيه الإسمنت، وكتبت: "ليس بعيدًا من ساقية البلاد [شارع الجزائر حاليًا] يقع البيت الجديد للسيد أبي بكر الكاف الذي زُرْتُه حالما سمحتْ لي صحتي بذلك. وقد كان البيت لا يزال في طور التشييد. وحديقته هي الحديقة الأولى في حضرموت التي تُصمَّم وفقًا للنموذج الأوروبي. ولا يوجد فيها الآن إلَّا مشاتل حجرية مستديرة، تحتوي كل واحدة منها على شجرة. وفي الحوافِّ هناك سِيَاجٌ من شجيرات الحنّاء المشذَّبة، وفي الوسط تنتصب نافورة".

ومثل ميولن عبَّرت لأبي بكر الكاف عن نقدها الشديد للتخلي عن النمط العمراني الحضرمي التقليدي في هذا المبنى، إذ كتبت: "إنّ هذا البيت هو أول مبنى في سيئون يُشيّد بالخرسانة المسلحة؛ لهذا ليس هناك حاجة للأعمدة في غرفه الواسعة. واستبعدت كذلك منه القطع الخشبية المنقوشة والمزينة بمسامير لها رؤوس رصاصية عريضة وتستخدم عادة في حضرموت، وحلَّتْ مكانها أبواب ونوافذ أوروبية، بُذلت أموال طائلة لزخرفتها. وفي الحقيقة كُلُّ شيءٍ كان غاليًا؛ حتَّى الحمَّام زُيّن سقفُه بنقشٍ ذهبيّ اللَّون في وسطه. أمَّا البَهْوُ الذي في الوسط فسيُغطى بسقفٍ زُجَاجِيٍّ مثل فنادق سنغافورة. أيّ عقاب أكثر فظاعة يمكن تخيّله لنقّاشي العصر الفيكتوري من أن يروا اختراعاتهم تنتشر مثل السرطان في العالم الذي لم يمسُّه الفساد بعد! ما الخطأ الذي ارتكبه الجنس البشري لكيلا يستطيع أن يستخدم المعرفة التي اكتسبها بثمن مرتفع جدًا للتمييز بين ما يحب وما يكره؟ إنه ليس الجهل الذي يمنعُنا من معرفة ما نحبُّ، بل الكسل والجبن. فنحن لو تركْنا إنسانًا ما دون تعليم يصنعُ ما يريد بفطرته لا شك أنه سيُنجِزُ أشياء رائعة. لكنْ عندما نبدأ نفكِّر فيما يجب أنْ نُحِبَّ أو نحتقر، تتفتَّقُ عقولُ أصحاب المصانع الغربية. ونحن نقبل الأشياء التي يبيعوننا إيَّاها بالجملة مثلما يقبل الشرقُ الغربَ. إننا نتقبَّل أفكار الآخرين، إما بسبب كسلنا وإما بسبب خوفنا من التعرُّف على أفكارنا الخاصة. ولا ريب أن السيد العجوز كان يحب أبوابه المنقوشة عندما ينظر إليها، ويشعر بالسعادة في مدينته العريقة والوحيدة التي لمْ أرَ فيها أية شائبة يمكن أن تمسَّ تناسقها وجمالها. ومع ذلك فالسيد أبوبكر الكاف يشعرُ أنه ملزمٌ بإدخال قُبْحِنَا الغربيّ إلى مدينته ليفسدها إلى الأبد. حاولتُ أنْ أقول ذلك: لكنْ ماذا يمكن أن يفعل صوتُ امرأة؟.. مجرَّد ضوضاء، ربَّما لطيفة، وربما ليس كذلك؛ وفقًا للمكان والزمان. وحينما عبّرتُ عن مشاعري للسّيد أبي بكر الكاف ابتسم؛ كان يعتقد أن حديثي حول جمال بيوت حضرموت مجرد مجاملة. ألا نعيش، نحن الأوروبيين، في مثل هذه المباني الحديثة ووسط مثل هذه الكماليات؟ ولماذا نصنعها إذا كنّا لا نُحِبُّها؟ ثم أخذني إلى البيت العالي الذي ما زالت عائلته تعيش فيه بالطريقة التقليدية".

البيت الجديد الذي شيده السيّد أبوبكر بن شيخ الكاف
(من كتاب فريا ستارك: مشاهد من حضرموت)

أما في سنة 1938 عندما زارت هي وزميلتيها سيئون حرسها من البدو، فقد سكنوا في بن داعر، والتقطت له بعض الصور.

الجزء الثالث– تقييم رصد الرحالة الغربيين للتغيُّرات العمرانية في مدن تريم وسيئون وشبام في ثلاثينيات القرن العشرين:

1– تقييم التقديم البصري للمدن الحضرمية في كتب الرحالة الغربيين:

تكتسب الصور الفوتوغرافية أهمية كبيرة في توثيق الرحلات بشكل عام؛ فالعناصر البصرية تشدُّ انتباه القارئ وتدفعه لمواصلة قراءة النص المصاحب. ويمكن القول إن الصور الفوتوغرافية تساعد على تقليص الأبعاد السرابية والخيالية التي قد يحاول بعض الرحالة إضفاءَها على نصوصهم لجذب القراء، فهي جزء من تجربة حية لا علاقة لها بالخيال بما أن التصوير الفوتوغرافي يهدف أساسًا إلى تقديم شهادة صادقة طبق الأصل للواقع، وإضفاء المصداقية على بعض مكونات الواقع العجيب والغرائبي في البلدان المجهولة والبعيدة.

ونؤكد هنا أن الأبعاد النصية في كتب فان در ميولن عن حضرموت واسعة جدًا، إذ إنها لا تحتوي إلَّا على عددٍ محدودٍ جدًا من الصور. بالمقابل نلاحظ أن التقديم البصري للمدن الحضرمية (أي بالصور) يحتل صفحات كثيرة في كتب كل من هانس هيلفريتس وفريا ستارك. ونذكّر أن عدد الصفحات التي كرسها هيلفريتس للصور في كتابيه (أراض بلا ظلال) و(الجنوب العربي المنسي) أكبر من عدد الصفحات المكرسة للتقديم النصي. وكثيرة كذلك الصور التي ضمنتها فريا ستارك كتابها الأول (البوابات الجنوبية).

لكنهـا، سـنة 1939، كرسـت كتابهـا (مشـاهد مـن حضرموت) بأكمله للصور التي التقطتها في رحلتيها الأولى والثانية لحضرموت.

ولا شك أيضًا في أن صور هانس هيلفريتس تحتوي على أبعاد فنية أوسع من صور كل من فان در ميولن وفريا ستارك؛ فبما أنه كان مصوّرًا محترفًا فقد جاءت صوره في غاية الدقة والجمال والوضوح. وشرح لنا بنفسه طريقة التقاطه الصور في كتابه (الجنوب العربي المنسي، ص169)، حيث كتب: "أعتقد أنه من المناسب في هذا الصدد الحديث عن كيفية التصوير في هذه البلدان، فمعظم الصور التي عدتُ بها من رحلتي هذه إلى وطني، كان عليَّ التقاطُها خِلسة، دون ملاحظة أحد، بآلتي (لايكا وأجفا) اللتين مكَّنتاني من التصوير في أي وقت، فحجمُهما صغيرٌ لدرجة أن السكان الأصليين لا يعتبرونها آلات تصوير. كما أن الاختيار الصحيح لمادة التصوير يلعب دورًا مهمًّا، فآلة أجفا –جيفرت مناسبة بامتياز للمناطق المدارية الحارة، وبواسطة أفلام الشركات الأخرى ما كنت لأصل إلى نتائج جيدة؛ لأنه سَرعان ما تختفي مادتُها في الحرارة المرتفعة للغاية. وتلعب مادة الفيلم كذلك دورًا مهمًّا؛ فقد استخدمت بشكل عام الشرائح الصفراء، كالتي تُستخدَم عندنا في أوقات العرض المماثلة، فمادتُها الأقلُّ حساسية تتناسبُ بشكل أفضل مع مناخ المناطق الحارَّة، فهي أكثر تحمُّلًا من الأفلام الأكثر حساسية. ولا تمثل صور هذا الكتاب إلا نموذجًا صغيرًا لما عُدْتُ به من صورٍ من جنوب جزيرة العرب، حيث يبلغ عدد هذه المجموعة قرابة ثلاثة آلاف صورة، وهي النتاج التصويري لهذه الرحلة".

وتكتسب الصور التي التقطها ميولن وهيلفريتس وستارك قيمة توثيقية تاريخية مؤكدة؛ فخلال استعراضنا لصور المباني الطينية في مدن وادي حضرموت التي التقطها هؤلاء الرحالة الغربيون بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٩، نلاحظ اختفاء كثير من تلك المباني، لاسيما الأسوار والحصون، إمَّا لأنها تهدَّمت بسبب عوامل التعرية والإهمال، وإمَّا لأنها هُدمت بسبب تجديد تخطيط المدن، مثلما حدث للبيوت والأسوار والحصون (أو الأكوات) التي كانت تحيط بقصر سلطان سيئون. وتبيّن الصور التي التقطها فان در ميون وفريا ستارك أنَّ غالبها قد اختفى سنة ١٩٣٩. وكما سبق أنْ ذكرنا، لولا تلك الصور لما كان بإمكاننا أن نرى اليوم ما كان يحيط بقصر السلطان في سيئون أو سور مدينة تريم وحصونها في مطلع ثلاثينيات القرن الماضي. وقد أكدتْ فريا ستارك في مقدمة كتابها (مشاهد من حضرموت، ص12) أنَّ الهدف من الصور التي ضمَّنتْها ذلك الكتاب هو "أن تذكرنا بعالم شديد التجانس وموغل في القدم وكثير العزلة وجميل جدًا، والذي من المحتمل أن يختفي من عالمنا تمامًا. هذه الصور ستحفظ قليلًا مما سيصبح قريبًا مجرَّدَ ذكرى للماضي".

2- إهمال الرحالة الغربيين للوظيفة الاجتماعية للمظهر الخارجي للبيوت والقصور في مدن حضرموت:

من المعلوم أن الرحالة الغربيين، عند تقديمهم للمنازل والقصور في مدن حضرموت، قد ركزوا أيضًا على الواجهات وألوانها والنقوش والزوائد (القموع والتيجان) التي زُيِّنت بها تلك المباني. ويبيّن تقديمُهم البصري، أي الصور الفوتوغرافية، أن الواجهات التقليدية الأصيلة تتميّز بالبساطة والاعتماد على المفارقة بين لون الطين البني الفاتح واللون الأبيض للموتيفات البسيطة حول النوافذ والفتح (العكر) والأبواب بالنورة،

وهو ما أشاد به كثير من الرحالة الغربيين، مثل فريا ستارك وفان در ميولن.

وكان الطلاء بالنورة في البيت الحضرمي التقليدي لا يتم إلا لأسطح السقوف والأطراف العلوية للجدران لحمايتها من الأمطار. وفي القرن الماضي يعدُّ ثريًّا إلى حد ما كلُّ مَنِ استطاع أن يطلي بالنورة جميع الواجهات الخارجية لبيته. وتبيِّنُ الصور التي ضمَّنتْها فريا ستارك وميولن وهيلفريتس أن الأثرياء كانوا يضعون بعض النقوش المجسَّمة في الطوابق العليا، ومنهم مَنْ يضع (قموعًا وخيشًا). واكتفى جميع هؤلاء الرحالة بالنظر إلى تلك الموتيفات والزوائد أنها مظاهر للزينة وربطوا الحديث عن بعضها – كالتيجان– بتأثر العمران في مدن حضرموت بالهند والغرب وجاوة. وبالمقابل أهملوا تمامًا الإشارة إلى أن الناس في حضرموت ينظرون إليها بوصفها علامات خارجية للثراء، وتختفي تمامًا في بيوت الناس العاديين.

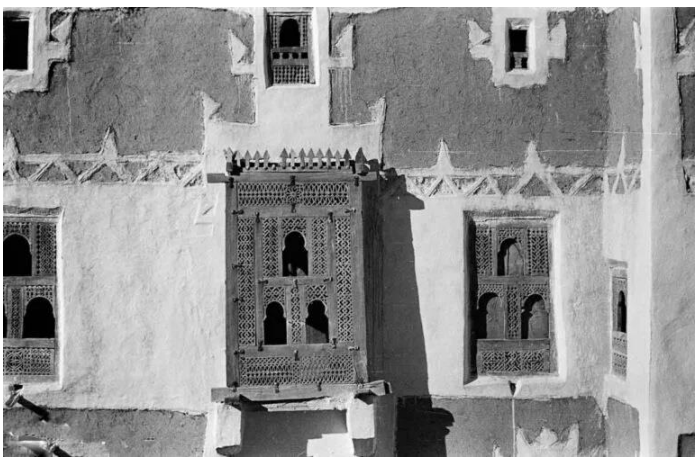

واجهات البيوت التقليدية في وادي حضرموت في ثلاثينيات القرن الماضي

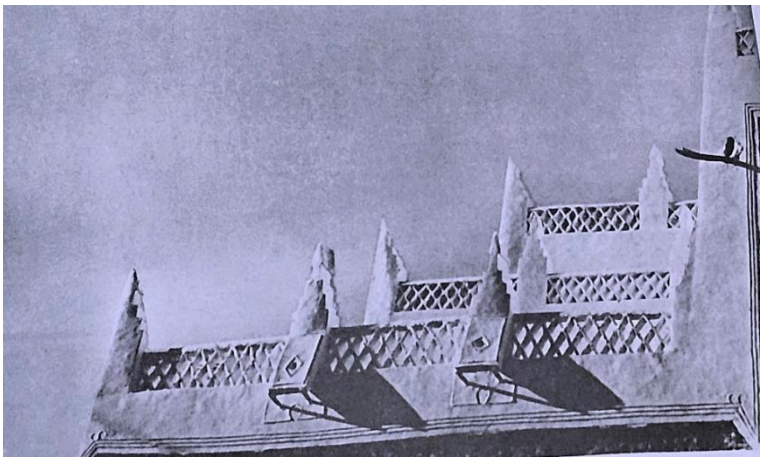

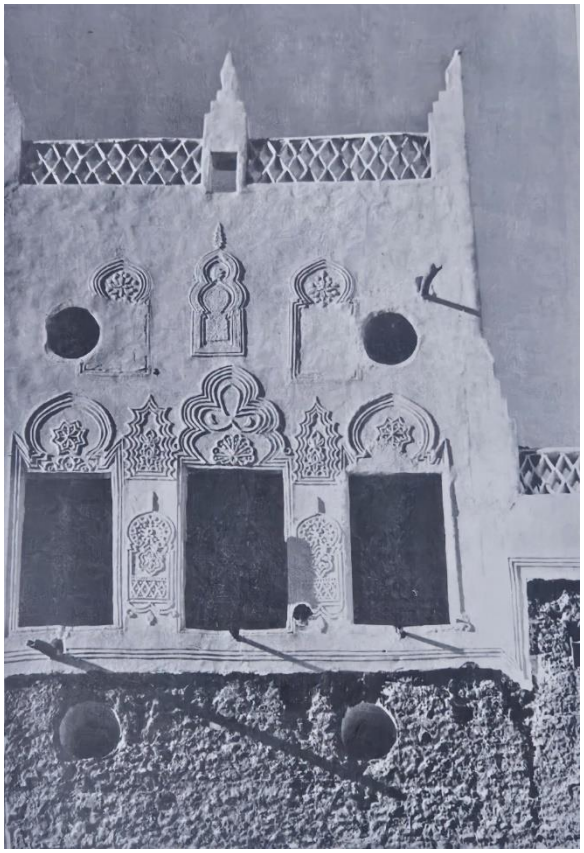

واجهة دار مولى خيلة بفجير سيئون 1935 (مشاهد من حضرموت)

الواجهة الجنوبية لدار بنقالة سيئون 1935 (مشاهد)

وفي اعتقادنا أن الزخارف الخارجية بكافة أنواعها تعدُّ في العمارة الطينية الحضرمية علامة لثراء مؤكد، والأصيل منها يأتي في شكل إضافات بسيطة وجميلة، مثلما هي الحال بالنسبة للنقوش التي صوَّرتْها فريا ستارك لواجهة دار آل مولى خيلة في فجير سيئون، والقموع والإطارات حول نوافذ دار بنقالة. وتبرز صور هيلفريتس بوضوح الموتيفات الجميلة التي حول نوافذ قصر سيئون ودار أحمد بن هود وسط سيئون.

في قصور الأثرياء في تريم برزت التيجان منذ مطلع ثلاثينيات القرن الماضي. وبفضل المهندس علوي الكاف أخذت التيجان أحجامًا ومساحاتٍ كبيرة، مثلما هي الحال فوق قصر المنيصورة لآل بن يحيى، وقصر عشة المجاور له لعائلة الكاف. ويتميز تاج قصر المنيصورة باحتوائه على ركائز، وهو تقليد لبعض نماذج البناء المنغولي. وكان قصر سلمانة مُثقَلًا بتاج مشابه وتمَّ إبعاده رِفقًا بما تحتَه. ويعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي التاج الذي لا نزال نشاهده فوق بوَّابة قصر سلطان سيئون.

ولم يذكر الرحالة الغربيون كذلك شيئًا عن الدلالة الاجتماعية لأشكال الفتح والعكر، التي تقع عادةً تحت السقف وفوق النوافذ في الطوابق العلوية، وتعدُّ من سمات العمارة الطينية التقليدية في وادي حضرموت. ومن المعلوم أن شكل تلك العكر أو الفتح، التي تحمل هي أيضًا دلالة على الثراء والحداثة، قد تطوَّر خلال

ثلاثينيات القرن الماضي. فعادةً تكون العكر في الطابق الأرضي مستطيلة وضيقة لأسباب أمنية، أما التي في الطابق للثاني فكانت في القديم مستطيلة رأسية. ثم منذ مطلع الثلاثينيات في القرن الماضي أدخل الشكلان المستطيل الأفقي والدائري، في قصور آل كاف أولًا، ثم في بيوت غالب الميسورين في مدن وادي حضرموت. وفي بن داعر وقصور آل الكاف وقصر الرناد في تريم تمَّ تعميم العكر المستديرة في جميع الطوابق بما في ذلك الطابق الأرضي.

3- هيمنة المصالح والمنطلقات الغربية على بعض كتابات الرحالة عن تطور العمران في مدن حضرموت:

في الوقت الذي نُسلِّم فيه بالأهمية التاريخية والعلمية لتقديم الرحالة الأجانب لتطوُّر العمران في المدن الرئيسة لوادي حضرموت، نرى أن علينا التأكيد أنَّ ذلك التقديم لا يخلو كُليًّا من تأثير المصالح والمنطلقات الأيديولوجية للرحالة الغربيين. ونعتقد أنه يصعب تفهُّم كل ما كتبه فان در ميولن وهانس هيلفريتس وفريا ستارك عن بعض التغيّرات العمرانية التي طرأت على نمط العمران التقليدي في وادي حضرموت من دون تبريرها بتلك المنطلقات.

فقد لمسْنا بجلاء أن النصوص والصور التي قدَّم بها أولئك الرحالة العمران في حضرموت تتضمَّن أبعادًا فنية عالية، هدفها الأول يكمن في جذب القارئ الغربي وإثارته، وإرضاء خياله الذي لا يرى في الشرق إلا أرضًا للعجائب والغرائب. ونرى أن دعوتهم إلى المحافظة على جميع مكونات النمط العمراني التقليدي في حضرموت، بكل إيجابيَّاته وسلبياته، تنطلق من رغبتهم في أن تظلَّ حضرموت محميَّةً أثريَّةً، يستطيع الغربيون أن يستمتعوا بزيارتها، وإشباع رغبتهم في الاطلاع على الغرائبي والعجيب في البلاد البعيدة، لكنَّها لا تتقاطع بالضرورة مع رغبة السُكَّان المحليين في تطوير واقعهم، وتحسين نمط سكنهم.

ونرى أن ليس كل ما قام به المهندسون المعماريون الحضارم في ثلاثينيات القرن الماضي من تحسينات في طريقة البناء، يدخل في إطار تأثرهم بالغرب أو الهند أو جاوة؛ فجزء كبير من تلك التحسينات يهدف في الأساس إلى تطوير البناء الطيني وتكييفه مع مستجدات التطورات الصناعية والتكنولوجية والاجتماعية والاقتصادية.

فمثلًا، يبدو لنا أن إدخال مادة الإسمنت في البناء في حضرموت في ثلاثينيات القرن الماضي، وتحديدًا في السقوف والأساسات، كما حدث في استراحة بن داعر، كان أمرًا ضروريًا لإكساب البناء الطيني صلابة وقدرة على الديمومة ومقاومة عوامل التعرية، فالبناء الطيني ينطوي على كثير من السلبيات التي لا يمكن لصقها بالحجارة أو الإسمنت. وكذلك بالنسبة لإقدام الحضارم على طلاء جميع الواجهات الخارجية لبيوتهم وقصورهم بالنورة أو الجير الأبيض بهدف حمايتها من التآكل بفعل الأمطار. وهو ما يبرر ما حدث لواجهات قصر سلطان سيئون سنة 1934. وتبرز لنا إحدى الصور التي التقطها له هانس هيلفريتس سنة 1932 مدى تأثر واجهاته وتآكلها.

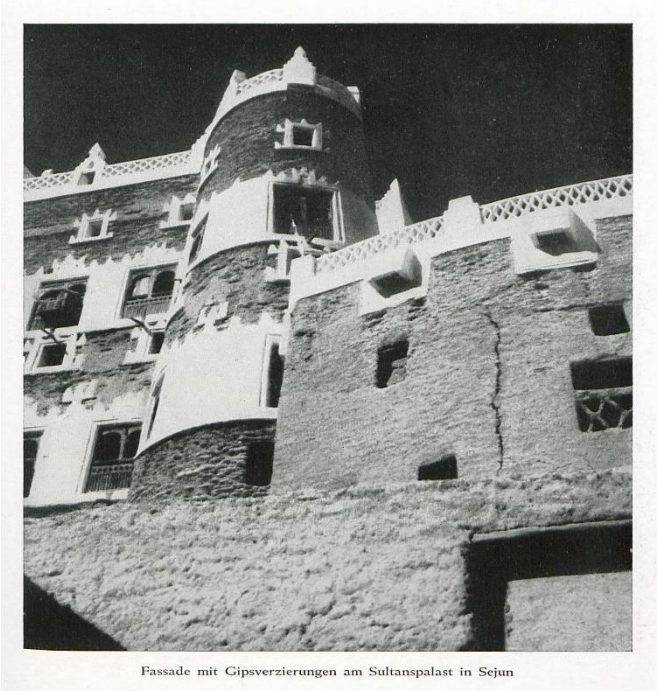

Fassade mit Gipsverzierungen am Sultanspalast in Sejun

وقد أشار ميولن نفسه إلى هشاشة مواد البناء الطيني، حينما كتب: "المادة الرئيسة المستخدمة في هذا البناء: هي الطين الذي يحصلون عليه في أي مكان قريب من المنزل الذي يبنى. وبما أن كل شيء (ملبس) بطبقة من الطين فيمكن استعمال جذوع أشجار السدر الملتوية والأعشاب الصحراوية الأخرى لتشييد السقوف التي تدعم أيضًا بجذوع أشجار النخل. ورأينا من هذه الأعمدة (البكار) والعوارض (الأسهم) في القلاع القديمة الآيلة للسقوط. وبلا شك أن أخشاب السدر بلونها البني جميلة جدًا، لكن بسبب قلتها اضطروا للاستعانة بجذوع النخل التي تغطى بالطين ثم تطلى مرة أخرى بألوان زاهية". وأشار ميولن في كتابه (حضرموت إزاحة النقاب) الى "قلة الأخشاب في حضرموت ورداءة أنواعها".

وقد كان ميولن شاهدًا على حدوث دمار هائل لحق ببيوت تريم الطينية في إثر وقوع منخفض جوي وذلك خلال زيارته الأولى للمدينة. وقد وثّق في كتابه (حضرموت، إزاحة النقاب...) ما شاهده من دمار سبَّبتْهُ الأمطار في تريم، حيث كتب: "وفجأة أظلمت السماء، وامتلأت السماء بالغيوم السوداء الكثيفة، وهبَّت زوابع رملية هوجاء، وسرعان ما تحولت إلى نوع العواصف الاستوائية، وأخذ وميض البرق يتوالى وأحال هزيم الرعود الجو إلى جحيم مرعب. وسرعان ما انصبت الأمطار من السماء انصبابًا، وكانت زخاته قوية وعنيفة، لم تر البلدة مثيلًا لها منذ عقود، إنه أشبه ما يكون بالمطر الذي سبق طوفان نوح. ولمَّا كانت معظم المدن والقرى في هذه الناحية مبنية من الطين، ففي وسع الإنسان أن يتصوَّر ما بدتْ عليه تريم في صباح اليوم التالي. فقد جرفت السيول سبعة عشر بيتًا وأجزاء من سور البلدة، وسدَّتْ عددًا كبيرًا من الآبار. وبدا قصر أبي بكر الكاف في منظر حزين أيضًا، فقد سالت سيول من الماء المصبوغ بحمرة الوحل على جدران القصر البيضاء وانهارت عدد من السقوف".

واللافت للنظر أن ميولن، على الرغم من اعترافه بعدم قدرة البناء الطيني التقليدي على مقاومة الأمطار

والكوارث الطبيعية الأخرى، قد انتقد ما أقدم عليه المهندس علوي الكاف، الذي قام بتخطيط عدد من قصور آل الكاف في ذلك العقد، وأدخل بعض التحسينات على البناء التقليدي، وتحديدًا استخدام مادة الإسمنت والخرسانة المسلحة في سقوف البيوت والقصور، والتخلص من الأعمدة وسط الغرف – كما لا نزال نراه في غرف ما بقي من قصور الكاف في تريم واستراحة بن (بن داعر) في سيئون. وقد وثّق ميولن لقاءه بالمهندس الخضيب في النصِّ الآتي: "والتقينا بسيّد آخر مرموق، وهو الرجل المسئول عن القصور الجديدة في تريم ومنزل ضيافة السيد أبوبكر في سيئون. فهو أقدم بكل جسارة وبدون أي تدريب فني، على تشييد تلك المباني الضخمة من الطوب الطيني والخشب، وأضاف إليها قليلًا من الإسمنت. وبما أننا كنّا من الأصدقاء ويمكننا أن نتحدث بصراحة، فقد قلنا لهم إن إعجابنا الشديد بالعبقرية الخلاقة للمهندس المعماري بدأت تقل، وأننا نحتج بشدة على الممارسات الحديثة التي أدخلها. وعندما سمعوا ذلك التفتوا نحونا في دهشة، فقد كانوا يتوقعون أننا سنعتبر تقليد النمط الغربي علامة على التقدم. وأخبرناهم عن قناعة بإعجابنا بالفن المعماري الحضرمي الحقيقي والأصيل. وأن هذا رأينا ورأي كل من درس الصورة الفوتوغرافية. وقلنا إننا نرى فيه فنًّا استفاد بشكل رائع من الضوء واللون وبيئة هذه البلاد وطقسها. وهو فن يُدرِك قيمة المواد البسيطة للطوب الطيني المجفف، ويستعمله بطريقة أمينة ومنطقية. وحيثما يبني الحضرمي ويعطي الشكل والأبعاد ذات الطابع التقليدي الذي تطوَّر وظلَّ مُتوارَثًا عبر الأجيال فهو يقدم أعمالًا فنية. ولكن عندما يهتم بالواجهة الأمامية الخداعة ويخلط الهندي وكل أنواع الأساليب الغربية، ويقوم بطلاء الطوب بالألوان، فهو هنا يؤذي مادته ويكون زائفًا بالنسبة لتقاليده. هنا يتم التخلي عن جزء من حضرموت له قيمة مرتبطة بالهوية، ولمصلحة شيء لا يستطيع أن يقف أمام اختبار الزمن وسرعان ما يصبح ممقوتًا. ولم يصدق مستمعونا أذانهم في البداية. كانوا ما زالوا منتشين بالأشكال الجديدة والألوان. ولا بُدَّ أن تستمر هذه الرغبة القلقة للتغيير مثل الوباء حتى تعالج نفسها، وإلا فإنَّ عالمنا الحديث سوف يصبح متشابها بشكل رتيب ويتخلى عن تميّز جمال الفن المعماري الحضرمي".

وعبرت الرحالة فريا ستارك كذلك عن التحفظ نفسه تجاه إدخال بعض التحسينات في نمط البناء الطيني التقليدي في استراحته (بن داعر)، وذلك عندما كتبت في (البوابات الجنوبية): "وحينما عبّرت عن مشاعري للسّيّد أبي بكر الكاف ابتسم؛ كان يعتقد أنَّ حديثي حول جمال بيوت حضرموت مجرد مجاملة. ألا نعيش، نحن الأوروبيين، في مثل هذه المباني الحديثة ووسط مثل هذه الكماليات؟ ولماذا نصنعها إذا كنّا لا نحبها؟ ثم أخذني إلى البيت العالي الذي ما زالت عائلته تعيش فيه بالطريقة التقليدية".

الخاتمة:

لقد حاولنا في هذه الدراسة إبراز القيمة العلمية الوثائقية المهمة لتقديم ثلاثة من الرحالة الغربيين للتغيرات التي طرأت على النمط العمراني التقليدي في أهم مدن وادي حضرموت: سيئون وتريم وشبام خلال الثلاثينيات من القرن الماضي. وقد تبيّن لنا أن أولئك الرحالة استطاعوا بنصوصهم وصورهم الفوتوغرافية الجذابة أن يوثقوا لنا أكثر ملامح النمط العمراني التقليدي لعدد كبير من بيوت مدن وادي حضرموت وقصورها، التي اندثر جزءٌ كبير منها. كما استطعنا أن نتعرف على المتغيرات التي أدخلت على البناء

التقليدي في تلك المدن.

ولمسنا أنَّ الرحالة الغربيين قد ربطوا تلك المتغيرات بتأثر الحضارم بأنماط البناء في الهند وجاوة والغرب. وأهملوا بالمقابل دور رغبة الحضارم في تطوير طريقة بناء مساكنهم بما يساعدها على الديمومة ومقاومة عوامل التعرية. وتبيَّنَ لنا أن تحفُّظ الرحالة الغربيين على بعض تلك التغيرات يرتبط بمصالحهم ومنطلقاتهم الأيديولوجية، إذ إنهم يفضلون أن تظل مدن حضرموت محميات أثرية بغض النظر عن السلبيات المرتبطة بهشاشة البناء الطيني التقليدي.

وتناولنا في ختام هذه الدراسة بعض الجوانب التي أهملها الرحالة الغربيون عند تقديمهم لملامح البناء الطيني في وادي حضرموت، مثل عدم الإشارة إلى الدلالة الاجتماعية لطلاء واجهات البيوت والقصور وألوانها والنقوش، والموتيفات و(القموع والتيجان) التي زُيّنت بها تلك الوجهات التي ركزوا عليها في تقديمهم البصري للمدن الحضرمية. ورأينا أن ذلك التقديم البصري قد أسهم كثيرًا في إعادة تشكيل رؤية الغرب للمجتمع الحضرمي الشرقي، وفي تغيير بعض المفاهيم السرابية والخاطئة والأحكام المسبقة التي ترسخت عنه في أذهان القارئ الغربي.

المصادر والمراجع:

أولًا– المصادر باللغة العربية:

1– فان دن ميولن (وفون فايسمان):

–حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها، ترجمة د. محمد سعيد القدال، دار جامعة عدن للطباعة والنشر في عامي 1997

– رحلة في جنوب الجزيرة العربية، ترجمة د. محمد سعيد القدال، دار جامعة عدن للطباعة والنشر عدن 1999

2– هانس هيلفريتس:

– أرض بلا ظلال، ترجمة د. خالد عوض بن مخاشن إصدار مركز حضرموت، المكلا 2024.

– الجنوب العربي المنسي، الوديان والحضر والبدو، مزود بـ146 صورة فوتوغرافية و96 لوحة فنية، ترجمة محمد أبو سريع سالم، دار الوفاق القاهرة 2019

– قادني الفضول حول العالم، رحلة موسيقية مصورة في اليمن 1931–1935، إصدار سفارة جمهورية ألمانيا الاتحادية، صنعاء 2007.

– اليمن من الباب الخلفي، تعريب خيري حمادي، ط1 بيروت 1961.

3–فريا ستارك:

– البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، رحلة إلى حضرموت، ترجمة وفاء الذهبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والنشر، أبوظبي 2014.

– مشاهد من حضرموت، ترجمة أحمد زين العيدروس ومحمد باحشوان، دار جامعة للطبعة والنشر، 1999.

ثانيًا– المصادر باللغات الأجنبية:

1–Van den Meulen (met H. von Wissmann-

- Hadramaut: some of its mysteries unveiled Leiden: E.J. Brill, 1932.

- Aden to Hadhramaut: a journey in South Arabia (met von Wissmann), London: Murray, 1947.

2- Hans Helfritz:

- Unter der Sonne des Orients, Berlin 1931
- 'Neugier trieb mich um die Welt', Berlin 1990
- Le Pays sans ombre : au royaume de Saba : Yemen et Hadramaout, traduit par J.-P. de Dadelsen (avec 60 photographies de l'auteur), AlbinMichel, Paris 1936

3-Freya Stark:

- Southern Gates of Arabia. A Journey in the Hadramaut, E.P. Dutton & Co., Inc, New York 1936
- Seen in Hadhramaut London: John Murray, (1938).
- Winter In Arabia, published by E. P. Dutton, New York, 1940

ثالثًا– المراجع:

- أ. د. أحمد إبراهيم محتسب حنشور، (العمارة الطينية بين الواقع والطموح) في مجلة حضرموت الثقافية العدد 18 ص 46
- جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة قدري قلعجي دار الكاتب العربي بيروت 1963
- مسعود عمشوش:
- حضرموت في كتابات الغربيين، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن 2018.
- حضرموت في كتابات فريا ستارك، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2004.
- صورة اليمن في كتابات الغربيين: دراسات في تمثيل الآخر، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2010.
- المستكشف هاري سانت جون فيلبي ورحلته إلى حضرموت، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2012.
- اليمن في كتابات فريا ستارك، عناوين، القاهرة 2019.

Foreign Documentation of Archeological Changes in the Cities of Tarim, Seiyun, and Shibam in the 1930s

Massoud Saeed Amshoush

Abstract

This study highlights the significant scientific and documentary value of the accounts provided by three Western travelers regarding the changes that occurred in the traditional architectural style of the most important cities of Wadi Hadhramout: Sayoun, Tarim, and Shibam, during the 1930s. It demonstrates that these travelers, through their writings and captivating photographs, were able to document most of the features of the traditional architectural style of a large number of houses and palaces in the cities of Wadi Hadhramout, much of which has since disappeared. The study also reveals the modifications introduced to the traditional construction in these cities. The Western travelers attributed these changes to the influence of building styles from India, Java, and the West on the Hadhrami people. However, they neglected the role of the Hadhrami people's desire to develop their housing construction methods to ensure durability and resistance to erosion. The study indicates also that the Western travelers' reservations about some of these changes are linked to their interests and ideological biases, as they preferred that the cities of Hadhramout remain archaeological reserves, regardless of the drawbacks associated with the fragility of traditional mud-brick construction. Furthermore, the study addressed some aspects overlooked by Western travelers when describing mud-brick architecture in the Hadhramout Valley. These included the failure to mention the social significance of the paint used on the facades of houses and palaces, their colors, inscriptions, motifs, and the decorative elements (such as cones and capitals) that adorned these structures. These elements were the focus of their visual accounts of Hadhrami cities. We believe that this visual representation significantly contributed to reshaping the Western perception of eastern Hadhrami society and to changing some of the misconceptions, inaccuracies, and preconceived notions that had become entrenched in the minds of Western readers .

Keywords: Architecture – Changes – Travelers – Hadhramout – Cities